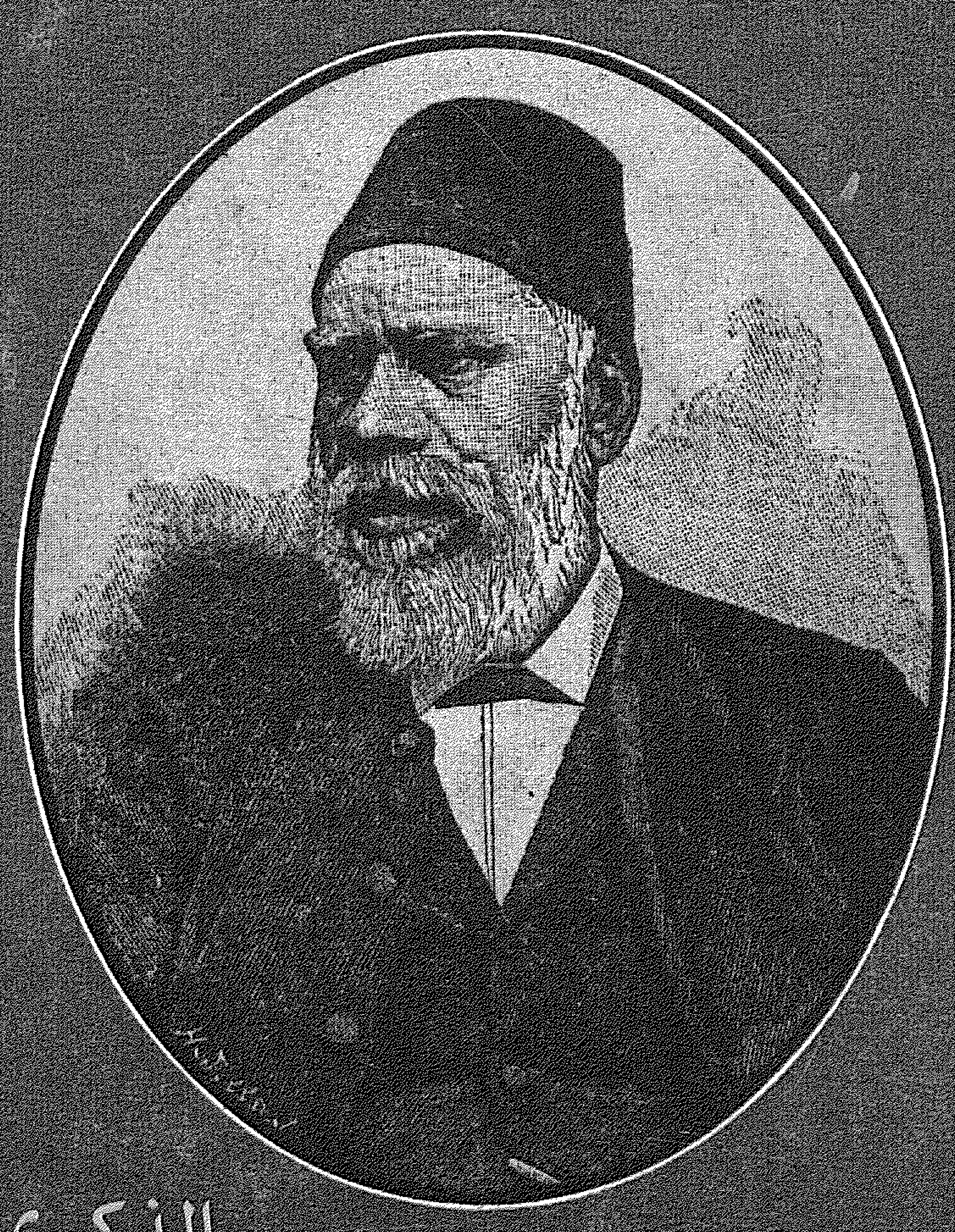
المجلس الأعلى للثقافة

على مبارك

(١٨٢٣ - ١٨٩٣)

رائد التحديث المصرى



الذكرى المائة

١٩٩٣

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

المجلس الأعلى للثقافة

على مبارك

(١٨٢٣ - ١٨٩٣)

رائد التحديث المصرى

الذكرى المائة

١٩٩٣

فى بداية الاحتفالية

بعد مائة عام تماماً من رحيل «على مبارك» يتحرك موكب المجلس الأعلى للثقافة للاحتفال بذكرى رحيل واحد من أبناء مصر الذين أسهموا فى النقلة التاريخية التى عرفتها مصر خلال القرن التاسع عشر ، والتى حققت النهضة التى ننعم بها .

وإذا كان هناك خلاف بين الباحثين والمفكرين حول موقف «على مبارك» من بعض حكام مصر فى عصره ، أو حول موقفه من حدث مهم كالثورة العرابية ، فليس هناك خلاف حول إسهاماته فى تكوين مصر الحديثة من الناحية الفكرية ، وإسهاماته العملية فى تحديث مصر من ناحية التمدين، وجهوده فى تخطيط المدن المصرية وتحديثها ، والنهوض بمرفق السكة الحديد ، ومواجهة الازدواجية التى نشأت فى التعليم منذ عصر محمد على ، وإنشاء دار الكتب ودار العلوم، وغيرها من الجهود التي تؤكد مكانة الرجل ، وروعة إسهامه الذى جعل منه رائد التحديث بكل معانيه .

إن هذه المكانة وهذا الإسهام هما دافع المثقفين المصريين للاحتفاء بهذا الرائد العظيم على محاور كثيرة . وإذا كان هذا الكتاب يحاول أن يعرِّفنا بهذه التجربة الحضارية لهذا الرائد فإن «على مبارك» نفسه يطل علينا بسيرته الذاتية كما كتبها هو . وقد دارت المطابع أيضا لتعيد طبع «علم الدين» بأجزائها الأربعة لتكون فى أيدى أبناء مصر .

وعلى جانب ثان ، هناك الندوات العلمية بمحاورها المختلفة وموضوعاتها وقضاياها الفكرية والثقافية التي يشارك فيها صفوة المثقفين . وأخيراً ، هناك العروض الفنية والمعارض والمطبوعات والمسابقات وحشد ضخم يصنع «احتفالية» جديرة بذكرى على مبارك التي نرجو منها أن تكون ذكرى وتذكرة ودافعاً يحثنا على اقتحام أفق المستقبل .

وليست هذه كل عناصر الاحتفالية ، ففي قريته برنبال سوف يقام قصر للثقافة باسم على مبارك ، ومكتبة باسمه فى مدينة المنصورة ، فى حديقة الخالدين التى نرجو أن يفرغ العمل فيها قريبا . ونأمل أن يحتل تمثاله مكانا مهماً فى هذه الحديقة ، فى محافظة «الدقهلية» التي ينتمي إليها «على مبارك» ، وسوف تكون صورته على طابع بريد يجوب مدن مصر وقراها وكفورها .

وليست هذه كلمة عن «على مبارك» ، ولا هى كلمة عن كل ما سوف يتم احتفالاً به ، وإنما مجرد تسجيل يؤكد أن مثقفى مصر ـ خلال المجلس الأعلى للثقافة ـ يتذكرون «على مبارك» يوم رحيله بعد مائة عام .

فاروق حسنى

وزير الثقافة

رئيس المجلس الأعلى للثقافة

تقديم

ولد على مبارك عام ١٨٢٣م وتوفى عام ١٨٩٣م ، تحديدا فى ليلة الثلاثاء الموافق ١٤ نوفمبر (٥ جمادى الأولى ١٣١١هـ) أى أننا نحتفل ، فى هذا الشهر، بمرور مائة عام على وفاته . نحاول أن نسترجع ذكراه وسط الأحداث المتلاحقة التى لا تكاد تترك لنا مجالا لاستعادة الذكرى والتواصل الخلاق مع التراث الذى ندين له بالنهضة . وذكرى على مبارك لها أهميتها التى لابد من تأكيدها فى هذه السنوات التى نلوذ فيها بقيم الاستنارة فى مواجهة مخاطر الإظلام ، فقد كان على مبارك رائداً جليل القدر من رواد هذه الاستنارة . مزج العلم بالفنون ، والخبرة العسكرية بالخبرة الإدارية ، وجمع إلى الاهتمام بالتعليم الاهتمام بهندسة المدن ، وبأنظمة الرى أنظمة المواصلات ، وبالعمل الوزارى العمل الشعبى ، وأتقن علوم العرب القديمة وفنون الغرب الحديثة .

والواقع أن ما يميز على مبارك عن غيره من أعلام النهضة هو تعدد إنجازاته فى أكثر من مجال ، فالرجل الذى أرسله محمد على ـ فى بعثة الأنجال ـ ليتعلم فنون العسكرية سرعان ما تركها إلى المجتمع المدنى ليؤسس حضوره ومعناه . وقد أسعده تاريخ بأن وضع زميله القديم فى البعثه (الذى أصبح الخديوى إسماعيل) على كرسى الحكم فطلب من صاحبه تحقيق أحلامهما عن النهضة ، فى مجالات التعليم والتثقيف العام والمواصلات والزراعة والرى وهندسة المدن والعمارة والتأليف . وكان جهد على مبارك فى ذلك خلاّقا مباركا ، أثمر نظام التعليم الحديث فى مصر ، ودار العلوم ، ودار الكتب ، وبداية تعليم المرأة مع إنشاء المدرسة السيوفية ، ومطبعة ديوان المدارس ، ومجلة روضة المدارس ، وتحديث السكك الحديدية ، والقناطر ، والتخطيط الحديث لمدينة القاهرة : شوارعها وميادينها ، أحياءها الجديدة، وحدائقها ، مصابيحها ومواصلاتها. وكان على مبارك ناظراً للمعارف العمومية والأشغال ومشرفاً على الرى والقناطر وعلى السكك الحديدية . باختصار ، كان

رجل النهضة الذى اضطلع بإكمال خطة التمدين وتجسيد الحضور المادى للدولة المدنية الحديثة .

وإذا كان «مشروع» على مبارك يستوعب تنوير الفكر وتنوير المدنية فى آن ، ويضىء القاهرة بالمصابيح ويضىء عقول أبناء مصر بالكتاب ، فإن ذلك يرجع إلى أن مشروعه كان مشروعاً رحباً للنهضة التامة التى تكمل فيها الجوانب المادية للتمدين والعمران الجوانب التنويرية للفكر والثقافة. ومن المؤكد أن اتساع هذا المشروع هو الذى أبرز صورة على مبارك المؤلف متعدد الأبعاد ؛ لقد ترك هذا الرائد الجليل إنجازات تأليفية شاهدة على ما فعل فى مجال الهندسة والتعليم والفنون ، كما ترك لنا لوائحه التى أصلح على أساسها التعليم وقام بتحديثه ، وأهمها لائحة رجب سنة ١٢٨٤ هـ (نوفمبر ١٨٦٨م) . أما كتبه ففيها ستة فى المجالات العلمية ، وواحد فى مجال الترجمة عن الفرنسية . لكن أكثر كتبه لفتا لانتباه الذاكرة الثقافية هما كتاباه عن «الخطط التوفيقية» فى عشرين مجلدا ، وقصته «علم الدين» فى أربعة مجلدات ، وهى القصة التى تحتل مكان الريادة فى تأسيس فن القص من ناحية ، وفى استهلالها معالجة إشكال العلاقة بين الشرق والغرب (أو الأنا والآخر) من ناحية ثانية .

إن احتفالنا بالذكرى المائة لوفاة على مبارك احتفال بكل قيم التنوير التى يمثلها ويؤكدها . وهو احتفال يؤكد تواصلنا مع هذه القيم وحرصنا على أن تظل فاعلة فى حياتنا : تنويراً وإبداعاً . وإذا كانت إحدى مهام المجلس الأعلى للثقافة مرتبطة بإشاعة الاستنارة ، وتأسيس حضورها ، فإن هذه المهمة نفسها تدفعنا إلى الاحتفاء بذكرى على مبارك ، وإشاعة القيم التى آمن بها ، لأنها قيم للمستقبل قبل أن تكون قيما للماضى .

وتحية إلى على مبارك فى ذكراه .

جابر عصفور

الأمين العام

للمجلس الأعلى للثقافة

القسم الأول

على مبارك

تجربة حضارية رائدة

إعــداد :

ا . د. أحمد درويش

ا . لمعى المطيــعى

المراحل الحضارية التى تمر بها الأمم فى تاريخها، لاتولد فجأة، ولاتختفى فجأة كذلك، ولايتصور أن تنهض أمة ذات صباح لتجد ظاهرة حضارية قد تشكلت لديها، كما ينهض البستانى فى الصباح ليجد وردة جديدة قد تفتحت فى حديقته، كما لايتصور كذلك أن تنتبه الأمة فجأة لتجد أن قيمة من قيمها الحضارية قد اجتثت كما تجْتث العاصفة الهوجاء شجرة راسخة فى برهة من الزمن، فقانون الميلاد والاختفاء الحضارى يتم فيه التداخل والصراع والإرهاصات وتمتزج لحظات اليأس والأمل قبل أن تتراءى النتائج أو مقدماتها.

وتاريخ النهضة المصرية الحديثة المرجوة، فى أواخر القرن العشرين، يدين لكثير من الجهود التى قام بها الرواد فى القرن التاسع عشر، ليخلصوا مصر من مناخ العصور الوسطى ويؤهلوها لاستقبال مناخ العصر الحديث والتفاعل معه، ومن ثم فإن التأمل فى حياة هؤلاء الرواد، لايعكس فقط لوناً من الوفاء ينبغى أن يقوم به الجيل اللاحق نحو الجيل السابق ، وإنما يعكس نوعاً من التأمل فى تاريخ التجربة الحضارية ، ومعرفة لحظات التواصل والتقدم، أو الانقطاع أو الانتكاس فى مراحلها المختلفة ومن ثم فقد يتيح مجالاً طيباً لتصحيح بعض سلبيات التجربة ذاتها .

وتجربة على مبارك الحضارية (١٨٢٣ ـ ١٨٩٣) تجئ بين التجارب الأولى التى عرفها القرن التاسع عشر ، وأثرت وما تزال تؤثر على التجربة الحضارية العربية بعامة والمصرية على وجه الخصوص.

واللافت للنظر فى تجربة على مبارك أنها تتسم بالثراء فى جانبيها الأفقى والرأسى ، فهى تمتد أفقيا لتشمل مجالات حضارية متعددة ، استطاع خلال السنوات السبعين التى استغرقتها رحلته الحياتية ، أن يضئ كثيرا من جوانبها ، أو أن يطرح على الأقل حولها كثيرا من الأسئلة الجادة

التى لعلنا ما زلنا نطرح البعض منها . ولمّا نملك بعدُ إجابات شافية عنها ، وقد تمتد هذه المجالات لتشمل التعليم وتنظيم القرية وتخطيط المدينة ، ومحاولة الاستفادة القصوى من النيل العظيم من خلال تنظيم توزيع المياه وإقامة القناطر ، إلى جانب الاهتمام بالمال الخيرى العام ممثلا فى «الأوقاف» وتوجيهه لخدمة أهداف حضارية يتم التخطيط لها والإفادة منها على مستوى أكبر قطاع ممكن من الأمة ، بدلا من توجيهها من قبل من خلال نوايا «خيريةّ» فردية ، قد يحمل إنفاق المال معها من سمات سوء التوزيع أو السفه ما يفسد كثيرا من نوايا الخير الطيبة وراء رصده ، وتمتد هذه التجربة لتشمل فكرة «التعليم الجامعى» التى حمل على مبارك لواءها أيضا من خلال إنشائه لدار العلوم ، وفكرة المكتبة القومية التى جسدها فى شكل دار الكتب وهى فكرة تأخر ظهورها فى بعض الدول الكبرى «االآن» أكثر من ثلاثة أرباع قرن على تنفيذ على مبارك لها ، إذ إن دولة كالصين ، لم تفتتح المكتبة الوطنية بها إلا فى عام ١٩٥٦ م أى بعد ستة وثمانين عاما من افتتاح دار الكتب على يد على مبارك سنة ١٨٧٠ م .

وهذا الامتداد الأفقى للتجربة يسانده امتداد رأسى عميق لها يتجاوز فيه فى شخصية على مبارك، الرجل «العملى» النشط، مع الرجل «المفكر» اليقظ، بل ومع الباحث المدقق، والمؤلف العالم ففكرة إصلاح التعليم لم يكن من الممكن لها أن تتحقق من خلال إنشاء المدارس الكثيرة، مالم يكن وراء هذا الجهد تخطيط واع، تمثل من الناحية التربوية فى ميثاقه الشهير «لائحة رجب» وهو الميثاق الذى نظم المؤسسات التعليمية من «مكاتب القرى» إلى «مكاتب المدن» إلى «المدارس المركزية» تنظيما دقيقا يمتد من الشروط الصحية للبناء الذى يتم فيه التعليم، إلى الشروط الفكرية للمدرسين الذين يتولون العبء فى المراحل المختلفة، بل وللطلاب الذين يمكن أن يكونوا أهلا لتلقى المعرفة فى هذه المرحلة أوتلك، دون أن تغفل اللائحة النظم المالية الدقيقة التى يعامل على أساس منها كل من المدرس والطالب، والتى تقدر حجم العبء الذى يمكن أن تتحمله الدولة أو تنوء به، وعلى ضوء من التقدير كان يصدر القرار بسير الخطة أو إيقافها، وكانت مرونة على مبارك تجعله يدرك كيف يقدم لكل حاكم تصورا يشجعه على الإقدام، كما فعل مع الخديو عباس الذى لم يكن يميل إلى التعليم، وعندما وضع له «لامبريك» خطة للتعليم كانت ميزانيتها عشرين ألف كيس (١٠٠ ألف جنيه) رفضها وأحالها مرة أخرى إلى لجنة فيها على مبارك، فعدلت الميزانية وفقاً لخطة على مبارك إلى ألف كيس فقط، فقبلها عباس وعهد إلى على مبارك بتنفيذها.

واتبع نفس التفكير عندما تولى وزارة الأشغال، أو نظارة الأشغال بلغة العصر، فلقد أرسل رجاله إلى أرجاء مصر، يعاينون الترع والقناطر والمبانى ويدونون مايستحق الإصلاح ويرتبونها إلى ضرورات

عاجلة وآجلة، ويتم تصوير ميزانيات لها يمكن تنفيذها على مراحل أوسنوات متتالية، وفقا لخطط شبيهة بما يعرف الآن فى التخطيط الحديث بنظام الخطط الخمسية أو العشرية.

وعلى هذا النحو يمتد مجال الرؤية عنده باحثا عن النتائج المرجوة والصعاب المحتملة فى الخطة التى يطرحها، وباحثا عن حلول لها قبل أن تتراكم ويزدحم بها المجرى، فعندما تصور قيام نهضة تعليمية كبرى تمتد عبر شوارع المدن ، وحوارى القرى ، لم يغب عن باله أن خطة طموح لن تتحقق إلا إذا ساعدته كوادر من المعلمين يتم إعدادها وفقا لتصوره الحديث ، ونظر بعينيه ليجد أن من تخرجهم النظم السائدة قبله ، لا يستطيعون تقديم العون الكافى له، وكان قد رأى نظام الكوليج دى فرانس أثناء حياته فى باريس ، حيث تفتح قاعات المحاضرات بجوار المكتبة العامة ، وتتاح أمام الطلاب فرصة تلقى محاضرات متنوعة فى فروع الفكر المختلفة وكان أن أسرع فى إنشاء قاعة للمحاضرات بدار الكتب المصرية ، دعيت «مدرسة الكتبخانة» أو «دار العلوم» واستقدم إليها أساتذة متخصصين يحاضرون فى فروع مختلفة كالفقه والحديث والتفسير والأدب والفلك والطبيعة والعمارة والنبات والسكة الحديدية ، وعندما بدأت التجربة تعطى بعض ثمارها ، كتب إلى الخديو فى يوليه ١٨٧٢ التماسا يقول فيه : « وقد تلاحظ أن المشتغلين الآن بوظيفة التعليم فى اللغة العربية والتركية، ليس فيهم الكفاية بالنسبة لذلك ، فإن وافق الحضرة العلية ، ينتخب قدر٥٠ من نجباء الطلبة من سن ٢٠ إلى ٣٠ سنة ، يؤخذون بالامتحان لمن يرغبون فى ذلك ، ويوجد فيهم الأهلية واللياقة ويدرس لهم فى دار العلوم الملحقة بالكتبخانة العامرة ما يلزم لتعميم معلوماتهم واستعدادهم لأداء وظيفة التعليم وحسن التربية على الوجه المطلوب والأسلوب المرغوب » وعلى ذلك النحو من التخطيط والتفكير يسبق التنفيذ ويواكب خطاه ويحاول أن يمحص بعض نتائجه عند على مبارك .

وهذه التجربة التى تتسم بالثراء «الأفقى ـ الرأسى» ، والشمول « الفكرى ـ العملى » كانت أيضا تتسم بالمرونة التى ضمنت لصاحبها اتساعا كبيرا فى مجال الحركة أمامه ، وجعلته يهتم بجواهر الأمور أكثر من أعراضها ، فيقبل على أساس منها أرفع المناصب فى حياة الأمة ، وفى الوقت نفسه لا يترفع عن القيام بمهام « صغيرة » قد تبدو لغيره شيئا لا يليق بالمقام «الرفيع» ، فهذا الرجل الذى كان يشغل فى وقت ، نظارة الأوقاف وإدارة ديوان الأشغال العمومية وإدارة ديوان المدارس وإدارة مصلحة السكة الحديدية ، وهى مناصب تعادل أربع وزارات مجتمعة الآن ، لم يتردد فى فترات تألقه أن يقبل مهام بسيطة مثل القيام بمحو أمية صف الضباط « الخارجين من تحت السلاح » وعندما قبل هذه المهمة أصابت الدهشة واحدا مثل أدهم باشا وهو من كبار رجال سعيد باشا ابن محمد على ، فسأل على مبارك : «أترضى أن تكون معلماً لهؤلاء ؟» فرد عليه على

مبارك قائلا : « كيف لا أرغب فى انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ماوصلنا إليه » وليست حياته الوظيفية من هذه الناحية إلا سلما صاعدا هابطا يعكس اضطرابات العصر ، دون أن تسمح النفس الصلبة لهذه الاضطرابات بأن تحجب عنها الهدف الكبير فى محاولة المشاركة فى إرساء دعائم نهضة الأمة .

إن المعجب أيضا فى تجربة على مبارك ، أنها كانت رغم مرورها بكثير من الظروف غير المشجعة أو غير المواتية تعرف كيف تستطيع الصبر عليها ، والصمود أمام لحظاتها القاسية ، مرورا إلى هدف بعيد ، لا تراه إلا البصائر القوية ، ولم تكن تجربته فى « التعليم » إلا نموذجا يستحق الكثير من التأمل ربما بالقدر الذى يستحقه نموذجه فى «التعليم » فإذا كان طفل اليوم فى الأسر المتوسطة بل والفقيرة ، لم تعد تطرح أمامه التساؤلات حول خطواته التعليمية فى سنواته المتتالية ، حيث المكاتب أو المدارس الأولية فالمتوسطة فالعالية فالعليا تستقر هياكلها أمام أغنى الأسر ، بتنوعاتها الأدبية أو العلمية أو الفنية ، نظرية أو عملية ، ذات مدى قصير أو متوسط أو بعيد ، ويتحدد مكان الدارس فيها على أسس معلومة كذلك، إذا كان هذا ما يشهده عصرنا بعد مائة عام من رحيل على مبارك ، فلم يكن الأمر كذلك على الإطلاق فى صباه ، بل ولم يكن أمامه نموذج قريب فى أسرته أو قريته أو ما وصل إليه من معارف ، يمكن أن يترسم خطاه ، وأبعد من ذلك أنه عندما تخيل طريق التعليم وهو صبى وقرر أن يسلكه رغم الصعاب ، وجد مقاومة شديدة من أحب الناس إليه، من أبيه الذى يحول بينه وبين كل مرة تالية ، ويخطفه من مدارس القرى البعيدة عندما يهرب إليها، ويحبسه فى البيت ويوصد دونه الأبواب ، ومن أمه التى لاتكف عن البكاء ، وأخوته الذين يستعطفون ويرجون ، ويقاوم الصبى هذه العقبات كلها ليجد طريق التعلم ذاته مفروشا بالأشواك ، فيقع بين عصا معلم الكتاب الغليظة، ودسائس كاتب القرية الذى ذهب يبغى عنده العلم ، فانتهى به المطاف إلى السجن ، وإهمال مدارس مصر المحروسة التى تسلق إليها بشق الأنفس ، فأورثه الإهمال مرضا وجربا فى جسده كاد أن يؤدى بحياته وهو صبى ، ولم يكن أمل أسرته فى استعادته قد فتر ، فظهر له أبوه «الحانى» وهو فى عنبر مدرسة «القصر العينى» يعانى من شدة المرض ، على أمل أن يعود معه إلى القرية ، ولكنه رغم كل شىء تماسك واستعصم وأبى، وواصل طريقه ، مقدما نموذجا فريدا فى قوة الإصرار رغم كثرة العوائق لأصحاب الأهداف الكبرى .

إن استعادة بعض الخطوط الرئيسية فى حياة على مبارك ربما تساعدنا على رؤية أوضح لجوانب من تجربته الحضارية الرائدة المتميزة فى القرن التاسع عشر .

ففترة طفولته ، فترة التكوين ، ربما وجد فيها الباحثون ما ينير الطريق لتفسير حياة على مبارك وأعماله ، فى حارة (المشايخ) بقرية (برنبال) من أعمال الدقهلية ولد على مبارك (١٨٢٣م) . وهاجر والده عام ١٨٢٩م تحت وطأة الأزمة الاقتصادية من الدقهلية إلى احدى قرى الشرقية . ولم يرغب «على» أن يكون فقيها بل كما يقول فى ترجمته الذاتية فى (الخطط التوفيقية) رغب أن يكون كاتبا فى الدواوين لقرب الكتاب من الحكام. ولكن الكاتب الذى ذهب يتمرن على يديه أساء معاملته فهرب على إلى منزل احدى خالاته ، وفى الطريق أصابته الكوليرا وادعى أنه يتيم لا أهل له حتى لا يعود به الناس إلى أهله فأخذه رجل غريب وهرب «على» إلى برنبال وعاد إلى المنزل .

وعمل لدى كاتب مساحة ولكنه أفشى سر الرشاوى التى يتقاضاها الكاتب فطرده حيث عمل بعدها مساعداً لكاتب زراعة فى (أبو كبير) شرقية فلفقوا له تهمة وسلموه للشرطة على أنه هارب من الجندية . وبالمصادفة ، كان محمد على باشا يزور المنطقة وعلم بقصة الصبى فأخلى سبيله وعمل لدى المأمور لقاء الجراية . ودخل أحد المكاتب بقرية منية العز وأختير لحسن خطه (وحسن حظه) ليدخل مدرسة (قصر العينى) وهى مدرسة للجهادية عام ١٨٣٥ م وكان عمره ١٢ عاما . وأصيب بالجرب ولم يجد ما يأكله وألغيت المدرسة وحولوا تلاميذها ومنهم «على» إلى المدرسة التجهيزية ثم أختير «على مبارك» ضمن الأوائل المختارين للالتحاق بمدرسة عليا هى (مدرسة المهندس خانة) فى بولاق عام ١٨٣٩ م ثم سافر فى البعثة عام ١٨٤٤ م . وبعد أن عاد ١٨٥٠ م ذهب إلى برنبال وفتحت له أمه الباب وسقطت مغشيا عليها عندما رأت ابنها بملابس العسكرية وما عليها من جمال ومهابة فاجتمع أهل الحارة لافاقتها والاحتفال بابن حارتهم (الصاغ على مبارك) وإذا كانت رحلة التعلم هذه بمراحلها المختلفة قد انتهت سنة ١٨٥٠ وعلى مبارك فى السابعة والعشرين من عمره، فإن سنوات النجاح، وربما سنوات البعثة على نحو خاص، كانت قد ملأت الشراع بالريح ومن ثم ازداد قدر الطموح فى تحقيق الإصلاح، ولكنه طموح كان يلتقى بدرجات مختلفة من ردود الأفعال تجاهه، تحفظا أو صدا أوتحمسا حسب ظروف الحياة السياسية فى مصر فى هذه الفترة، والتى عايش خلالها على مبارك أربعة من حكام مصر على التعاقب، هم عباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق، ومن ثم اختلفت درجات تحقيق الإصلاح من عهد حاكم إلى حاكم آخر.

عند عودته عام ١٨٥٠م من البعثة وفى المقابلة الأولى له مع الخديوى «عباس الأول» أنعم عليه برتبة (الصاغ) ومنحه نجمة ذهبية فيها ثلاثة أحجار من الماس. وبناء على طلب الخديوى قدم

له مشروعا لتقليص التعليم فاستحق رتبة (أميرالاى) ولاخلاف بين الباحثين أن «على مبارك» سبح مع تيار الخديوى عباس. والذى كافأه بأبعادية فى مديرية الدقهلية مساحتها ٣٠٠ فدان وبذلك بدأ «على مبارك» نشاطه فى الإدارة وهو ينتمى إلى الطبقة المتوسطة وكبار ملاك الأراضى الزراعية.

ولكن «عباس» قتل فى مؤامرة من مؤامرات قصور الشرق وتولى «سعيد» فى يوليو ١٨٥٤م. وبادر «سعيد» بإرسال «على مبارك» رجل عباس المقتول الى ميدان حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية ولابأس فإن مهارة على مبارك فى دراسة فنون الحرب مشهود له بها. وتوقفت الحرب وعاد فى مارس ١٨٥٦، وتم ركنه فى (مستودع الداخلية) وتحول بذلك الى أحد رجال المعية يتقاضى الراتب دون أن يؤدى عملا. وانتهى الأمر بأن فصله الخديوى سعيد فعمل بالتجارة الى أن توفى «سعيد».

ولاشك أن خط الصعود لطموحات على مبارك يبدو مختلفاً مع تولى الخديوى اسماعيل الحكم عام ١٨٦٣م، حيث تغيرت طبيعة الحاكم من ناحية، وطبيعة العلاقة التى تربطه بعلى مبارك من ناحية ثانية فإسماعيل هو ابن «ابراهيم باشا» ابن «محمدعلى باشا» وقد أراد «اسماعيل» أن يكون إمتدادا لأبيه وجده فى التوسع التعليمى وفى نهضة مصر. وفور تولى «اسماعيل» الحكم استدعى «على مبارك» الذى كان قد تخرج من مدرسة المهندسخانة فى بولاق، وكان أول فرقته عام ١٨٤٤وعندما قرر «محمد على باشا» ارسال بعثة الى فرنسا من ٧٠ طالبا. الفوج الأول من ٣٩ طالبا يضم «اسماعيل بك»حفيد «محمد على» وابن «ابراهيم باشا» ومعه عدد آخر من الامراء، كان ضمن هذا الفوج «على مبارك». وأصدر «محمد على» أوامره إلى ناظر المدرسة بمراعاة المساواة التامة بين الطلاب فى أمور المعيشة والتعليم، فاندمج « اسماعيل بك » فى صداقة مع « على مبارك» . وظل « على مبارك» متقدما كعادته فى الدراسة وكان أول الناجحين فى البعثة وعندما سافر «ابراهيم باشا» إلى فرنسا عام ١٨٤٦م ليتفقد طلاب البعثة من ناحية وليطمئن على ابنه «اسماعيل» من ناحية ثانية منح « على مبارك» هدية قيمة . وقد درس « على مبارك» مع زملائه فنون الحرب فى فرنسا والتحق الثلاثة الأوائل منهم بكلية عسكرية برتبة الملازم ثان لمدة عامين . وعاد إلى مصر عام ١٨٥٠ . وكان « اسماعيل باشا» يعرف «على مبارك» جيد المعرفة، وكان يدرك مدى تقدمه العلمى والعسكرى وكانت بينهما صداقة فاستدعاه وعهد إليه بأن يتولى المشروع العمرانى الذى يحلم به، وهو أن يجعل مصر قطعة من أوربا، وطلب منه أن يعيد تنظيم القاهرة وعينه ناظرا للقناطر الخيرية، وناظرا لقلم الهندسة، وعضوا بديوان الأشغال العامة، ولفرط ثقته فيه اختاره ممثلا لمصر فى (القومسيون) الذى يبحث النزاع بين مصر والدول الأجنبية، ووكيلا لديوان المدارس فرئيسا للديوان . وأرسله إلى باريس مندوبا عنه.

وكان إذا شغر منصب احتله « على مبارك» وإذا اختل العمل فى جهة عهد إلى على مبارك بتولى أمورها . فعين مديرا لديوان الأشغال ، ومأمورا لمصلحة السكة الحديد وناظرا لعموم الأوقاف ، وعهد إليه بتنظيم العاصمة ، وأشرف على الاحتفال بافتتاح قناة السويس.

باختصار كان لعلى مبارك دوره فى تنظيم القاهرة وإدارة القناطر الخيرية وبالتالى تنظيم الرى وقلم الهندسة والأشغال العامة ، والمفاوضات مع الأجانب وتنظيم التعليم ومد السكة الحديد والأوقاف . وأنعم عليه « الخديوى» برتبة (الميرميران) الرفيعة ، وبالنيشان المجدى .

وإذا كانت الأمور قد سارت على نحو طيب فى عهد الخديوى إسماعيل بسبب الصداقة القديمة منذ أيام «بعثة الأنجال» فإن بعضا من رجال إسماعيل، وعلى رأسهم «إسماعيل صديق» أخوه من الرضاعة لم يكونوا راضين عن نجاح على مبارك وكانوا يضعون العراقيل فى طريقه، العراقيل والدسائس التى كان ينجح فى معظم الأحيان فى تخطيها ، وكان ينحنى فى أحيان أخرى للعاصفة حتى تمر ، ولكن عندما خلف توفيق الخديوى إسماعيل فى الحكم ، بدا أن عصرا جديدا يواجه على مبارك ، فبعد أن كان يتولى ثلاث وزارات فى عهد إسماعيل، أعلن تشكيل الوزارة الجديدة فى عهد توفيق سنة ١٨٧٩ دون أن يكون فيها اسم على مبارك وإذا كان قد انضم بعد ذلك إلى وزارات تالية فى عهد توفيق ، فقد واجه خلال هذه الفترة أكثر الأمور فى حياته حرجا وإثارة للجدل حوله ونعنى به موقفه من الثورة العرابية فقد اشترك « على مبارك » فى وزارة «رياض باشا » سبتمبر ١٨٧٩م ناظرا للأشغال. ولم يشارك فى الوزارات التى عاصرت أحداث الثورة العرابية. وخرج من الوزارة فى سبتمبر ١٨٨١م وسافر الى قريته (برنبال) ليبتعد عن الصراعات. والأرجح أنه لم يكن معاديا لأهداف الثورة ولكنه كان رافضا لأساليب العرابيين. ومع ذلك نجده يحضر اجتماع المجلس العرفى يوم ١٧ يوليو ١٨٨٢م عندما وضح عزم الانجليز على احتلال مصر. وسافر الى الاسكندرية مبعوثا عن المجتمعين يوم ٢٣ يوليو ليعرف حقيقة موقف الخديوى ومقابلة الخديوى جعلته يعتنق الحل الوسط مع ميل الى الخديوى. وكتب «على مبارك» الى أحمد عرابى يقترح عليه (ابتعاد قادة الثورة عن السلطة) فرفض عرابى اقتراح على مبارك.

واشترك على مبارك فى وزارة أغسطس ١٨٨٢ وأنعم عليه الخديوى توفيق برتبة رفيعة. ومرت الأيام على النحو الذى هو معروف الى أن تولى نظارة المعارف فى وزارة «مصطفى رياض» (١٨٨٨ ـ ١٨٩١م) ولم يطل به المقام بعد أحداث الثورة العرابية، فقد اشتد عليه مرض المسالك البولية وتوفى فى منزله الكبير بالحلمية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

وعلى الرغم من كثرة الأعباء والمهام العملية التى تحملها على مبارك خلال حياته وقدم فيها إنجازات مرموقة وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات التى كان عليه أن يواجهها، فقد استطاع أن

يجد لديه من الوقت، ربما فى فترات الجزر التى اعترت حياته وابتعد فيها قليلا عن مشاغل الحكم، لكى يؤلف بعض الكتب القديمة فى مجالات متنوعة تنوع مواهبه الفذة الغنية وإذا كانت «الخطط التوفيقية»، و «علم الدين» يمثلان أشهر مؤلفاته فإن قائمة هذه المؤلفات والمترجمات امتدت لتغطى معظم الحقول الفكرية المعروفة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فهناك ترجمة لكتاب سيديو خلاصة تاريخ العرب الذى شاركه فيه محمد أحمد عبد الرزاق، وكتابه «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ومؤلفاته حول الهندسة والرياضيات مثل «تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين» وكتابه «تقريب الهندسة» و«الميزان فى الأقبية والأوزان» و «خواص الأعداد» وكتبه فى الصحة العامة مثل «تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام» أو المعارف العامة مثل «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار» أو فى التربية مثل «طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية» وإذا كانت معظم هذه المؤلفات قد أتت لتستكمل البعد النظرى والفكرى فى خططه العملية فإن موسوعتيه الكبيرتين «الخطط التوفيقية» و «علم الدين» قد رسما صورة واضحة لحرص رائد من رواد الحضارة فى القرن التاسع عشر على تثبيت دعائم الحضارة المكانية وغرسها فى جذور التربة من ناحية، وعلى تأكيد صلابة هذه الحضارة من خلال مواجهتها لحضارات أخرى تدير الحوار معها نشدانا للتفاعل انطلاقا من ثقتها فى النفس، وإحساسها بالحاجة الدائمة للتطور، والرغبة الدائمة فى طرح المزيد من التساؤلات، ومحاولة البحث عن إجابات لها وهى قضايا طرحها على مبارك منذ مائة عام ومازلنا فى حاجة إلى مزيد من التأمل فيها ومراجعة تجربتنا الحاضرة على ضوؤها لنعرف موقع أقدامنا، ونسأل أنفسنا : كم خطوة تقدمناها فى مائة عام؟

القسم الثانى

على مبارك

سيرته الذاتية بقلمه

إعـــداد :

الدكتور محمد درى بك الحكيم



صورة المرحوم علی مبارك باشا

ولد فی سنة ١٢٣٩ هجريه

وتوفی فی سنة ١٣١١ هجريه

تاريخ

حياة المغفور له

على مبارك باشا

استخرجها

الدكتور محمد درى بك الحكيم

من

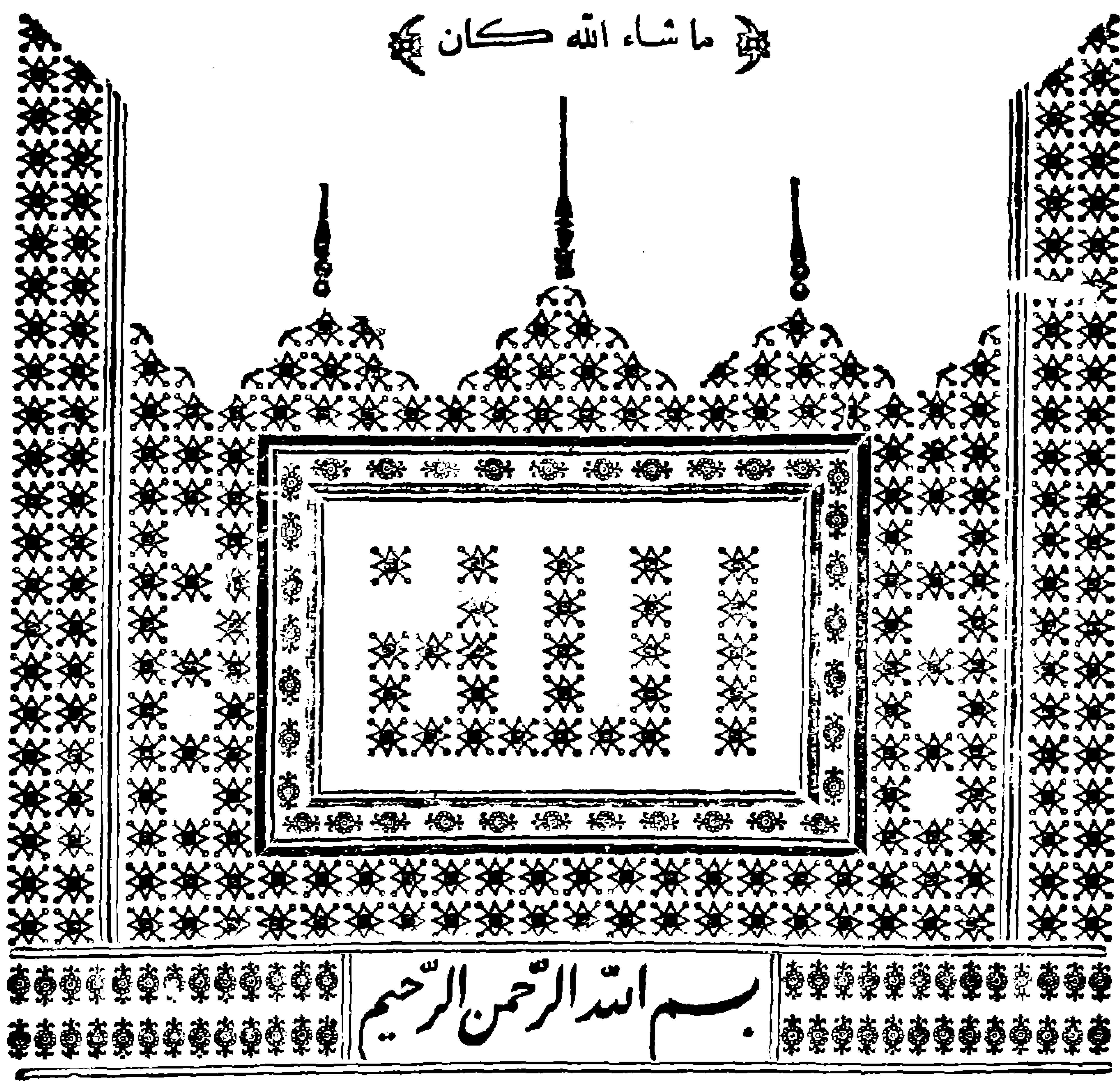
كتاب الخطط التوفيقية المطبوع فى سنة ١٣٠٦

(طبع)

(بالمطبعة الطبية الدرية الكائنة بحارة السقائين بمصر المحمية)

(سنة ١٣١١)

(هجريه)



الحمد لله فاوت بين الرجال فى الآثار فمنهم من لم يذكر ومنهم من غالب الادهار والصلاة والسلام على من عنت الوجوه لجليل آثاره وتنافست الفهوم فى اعلاء مقداره سيدنا محمد أوسع النبيين علما وأقسطهم حكما وعلى آله وصحابته والناهجين على سننه الى يوم الدين آمين (أما بعد) فيقول الدكتور محمد درى بك الحكيم انى لما كنت ممن يعترفون لمفيد العلم والوطن المرحوم على مبارك باشا بانه نفع العباد والبلاد فأنار العقول بالعلوم وأفاد مصر المدنية وكنت ممن لا يهمل الواجب ولا يضيع الصاحب فكرت فى أقرب طريق يبقى ذكر ذلك الرجل العظيم فى كل قلب سليم فلم أر أكمل من طبع تاريخ حياته النادرة المثال محلاة بصورته المحفوظة فى الخيال

فبعثت

فبعثت بها الى الديار الاوربية لرسمها على النحاس فجاءت طبق الاصل والقياس المشاهد للناس وبحثت عن ترجمة حياته رحمه الله فلم أجد أوفى مما كتبه هو بيده نقلا عما بقى فى خلده فرجعت فى ذلك الى ما كتب وأخذته من خططه الشهيرة التى هى احدى آثاره الكثيرة وسأتبع الترجمة بما أعلمه أو أقتطفه ممن عاشره من جلائل أعماله وجليل خلاله الى ان توفاه الله

وأظن ان عملى هذا يصادف من اخوانى الوطنيين صدرا رحبا فيعمل كل منهم بما يصل اليه الامكان فى تخليد ذكر هذا الرجل الجليل رحمه الله وأبقى بعملنا وعملهم تخليد ذكراه

وكلنا نعلم ان مثل هذا العمل وهو العناية بأمر النافعين فى ديارنا بعد وفاتهم مما يفيدنا نشاطا فى العمل وبسطة فى الأمل ولمثل هذا فليعمل العاملون

وان فى كتابة المرحوم تاريخ حياته بنفسه لا كبر قدوة لكل كبير وصاحب مقام خطير حتى لايتخبط الكاتبون فى الاعمال أو الايام وحتى لايعد ذكر الاصل والحسب والنسب وما لافوه من العسرة أو الشدة ضربا من ضروب التنقيص وحتى يتبين للعامة ان العظيم وان علا شانه وكبر نشأته لاينقصه ان يقول على نفسه مايعلم وبذلك تكبرهم الناس فتشرف نفوسهم الى ان يكونوا من الكبراء وينالوا مناصب العظماء ولا يصدهم عن ذلك فكر انهم ليسوا أهلا لذلك المنال ولا من أبطال ذلك المجال فهذه أيضا احدى حسنات ذلك الرجل الجليل فانه كتب عن نفسه مالم يصل اليه كاتب لولم يكتبه هو بقلمه تغمده الله برضوانه وأسكنه بحابح جنانه وهذا هو الموجود فى خططه قال رحمه الله

ان قرية برنبال الجديدة هى مسقط رأسى وبها نشأت وكانت ولادتى فى سنة ١٢٣٩ هجرية كما أخبرنى بذلك أبى وأخى الاكبر المرحوم الحاج محمد المتوفى فى شهر رمضان سنة ١٢٩٣ ووالدى هو مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى ذكر لى أخى المذكور ان جدنا الاعلى من ناحية الكوم

والخليج قرية على بحر طناح و بسبب فشل كبير حصل فى البلد تشتتت عائلتنا فى البلاد فنهم من أقام بناحية دموه وهم عائلة البجالصة ومنهم من أقام بناحية الموامنة ولم يبق منهم بالبلد الاصلية الا أولاد غيطاس وأقام جدّنا الاكبر ابراهيم الروجى بناحية برنبال الجديدة مكرما معظما فكان هو أمامها وخطيبها وقاضيها وبعد موته عقبه ولده سليمان على وظيفته وعقب سليمان ابنه مبارك ولما رزق مبارك الذى هو الجد الادنى بأبى سماه على اسمه ونشأ على وظيفة آباءه وأجداده وهكذا أكثر العائلة فلذا كانت تعرف فى البلد الى الآن بعائلة المشايخ وهى عائلة كثيرة الفروع بحيث ان منها فى البلد حارة كاملة تعد نحو مائتى نفس ولهم بها وظيفة القضاء والخطبة والامامة وعقود الانكحة والكيل والميزان وكانت لهم رزقة بلا مال ولم يكن عليهم شئ مما على الفلاحين ولا لهم علائق عند حكام الجهات و بقوا على ذلك الى ان حصل ضعف أكثر أهل الناحية عن فلاحة الارض وانكسرت عليهم أموال الديوان فرمى الحكام على هذه العائلة مقدارا من الاطيان وطلبوا منهم أموالها المنكسرة عليها وضربوا عليهم بعض ضرائب وشددوا فى خلاصها بالسجن والضرب كاسوة الفلاحين فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الاهانة وبعد بذلهم مابأيديهم و بيعهم المواشى وأثاثات البيوت رأوا أن لاملجأ لهم من ذلك الا الفرار ففارقوا البلد وتفرقوا فى البلاد فنزل والدى بقرية الحماديين من بلاد الشرقية وعمرى اذ ذاك نحو ست سنين وقبل رحلتنا كنت ابتدأت فى تعلم القراءة والكتابة على رجل من برنبال أعمى يسمى أبا عسر قد توفى بعد ذلك ولعدم اكرامنا بناحية الحماديين لم يطب لنا المقام بها فلم نلبث فيها الا قليلا وارتحلنا منها الى عرب السماعنة بالشرقية أيضا وهم من عرب الخيش ولم يكن عندهم فقهاء فأنزلوا والدى منزل الاكرام والاجلال وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعا كبيرا وصار مرجعهم اليه فى الاحكام الدينية وكان رجلا صالحا دينا

متفقها

متفقها حسن الاخلاق فاحبوه حبا شديدا وبنوا جامعا جعلوه أمامه ولما ارتاح خاطره وارتاحت عنه الشدائد التفت الى تربيتي فعلمني أولا بنفسه ثم أسلمني لمعلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردى قرية بقرب برنبال وكان مقيما فى قرية صغيرة قريبة من مساكن هؤلاء العرب وجعل الوالد يرسل لى كفايتى عنده وكنت لا أذهب الى بيتنا الا كل جمعة ومن خوفى منه كنت لاأعود اليه فارغ اليد فاقمت عنده نحو سنتين ختمت القرآن بداية ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت ان أذهب اليه بعد ذلك وجعلت اقرأ عند والدى الا انى لكثرة أشغاله واشتغاله عنى استعملت اللعب والتفريط فنسيت ماحفظته نخشى والدى عاقبة ذلك فهم بجبرى على الذهاب الى هذا المعلم فتعاصيت ونويت الهروب ان لم يرجع عنى وكان لى من الاخوات سبع بنات شقيقات ولم يكن لوالدى من الذكور غيرى ولى اخوة ذكور من غير أمى فلما فهموا منى نية الهروب أشفقوا من ذلك وحنوا الى وسألونى عن مرغوبى فى التربية اذ لايصح بقاء الشخص بلا تربية فاخترت أن لاأكون فقيها بهذه المثابة وانما أكون كاتبا لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام وكان لوالدى صاحب من الكتاب كان كاتب قسم واقامته بناحية الاخيوة فاسلمنى اليه فرأيته رجلا حسن الهيئة نظيف الثياب جميل الخط فاقمت عنده مدة ولى من والدى مرتب يكفينى فدخلت بيته وخالطت عياله فاذا هو مجمل الظاهر فقير فى بيته وله ثلاث زوجات وعيال على قلة من الزاد فكنت فى غالب أيامى أبيت طاويا من الجوع وكان أغلب تعليمه اياى على قلته فى البيت أمام نساءه وكان خروجه الى السرحة قليلا واذا خرج يستصحبنى معه فلا أستفيد الا خدمتى له ومع ذلك فكان يؤذينى دائما الى ان كنا يوما فى قرية المناجاة فسألنى أمام الناظر وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد فقلت له باثنين فضربنى بمقلاة بن فشجنى فى رأسى فلامه

الحاضرون وذهبت الى والدى أشكو اليه فلم أنل منه الا الاذية وكان يومئذ
مولد سيدى أحمد البدوى فهربت مع الناس قاصدا المطرية جهة المنزلة
لألحق بخالة لى هناك فرضت بالريح الاصفر فى طريقى بقرية صان الحجر
فأخذنى رجل من أهلها لاأعرفه فتمرضت عنده أربعين يوما وقد سألونى عن
أهلى فقلت أنا يتيم مقطوع وكان والدى فى تلك المدة وأحد اخوتى يفتشان
علىّ فى البلاد فاستدل علىّ فى صان فلما رأيته من بعد هربت ونزلت بتنية
طريف فاخذنى رجل غربى ولم أقم عنده الا قليلا وهربت منه ولحقت بأخ
لى فى بلدتنا برنبال وكان قد رجع اليها وبعد أيام قدم الينا أخى الذى كان
يفتش علىّ فاخذنى بالحيلة الى والدى وقد أشكل عليهم أمرى وذهبوا كل
مذهب فى كيفية تربيتى وما يصنعون بى وجعلوا يعرضون علىّ القراء
والكتاب فلم أقبل وقلت ان المعلم لاأستفيد منه الا الضرب والكاتب لايفيدنى
الا الضياع والاذية ويستفيد منى الخدمة ثم عرض علىّ والدى ان يلحقنى
بصاحب له من كتبة المساحين فرضيت بذلك فلما عاشرته رغبت فى عشرته لما
كنت أكتسب من صحبته من النقود التى تنالنى مما يأخذه من الاهالى فاقمت
عنده ثلاثة أشهر ولكنى لصغر سنى وعدم معرفتى بما ينفع وما يضر كنت
أفشى سره وأخبر عن أخذه من الناس فطردنى فبقيت فى بيتنا أقرأ على أبى
ويستصحبنى فى قبض الاموال الاميرية التى على العرب وكان منوطا بذلك
فكنت أباشر الكتابة وبعض المحاسبات ثم بعد نحو سنة جعلنى مساعدا عند
كاتب فى مأمورية أبى كبير بماهية خمسين غرشا أبيض له الدفاتر فاقمت عنده
نحو ثلاثة أشهر وقد خلقت ثيابى وساء حالى ولم أقبض شيأ من الماهية الا
الاكل فى بيته ثم عيننى يوما لقبض حاصل أبى كبير فقبضته وأمسكت عندى
منه قدر ماهيتى وكتبت له علما بالواصل ووضعته فى كيس النقدية فلما وقف
على ذلك اغتاظ منى وأسرها فى نفسه وكان مأمور أبى كبير يومئذ عبد العال

أبو

أبو سالم من منيــة النمروط فاخبره بذلك واتفق أن المأمورية مطلوب منها شخص فى العسكرية فأغراه علىّ وتوافق على الحاقى بالجهادية لسـداد هـذه الطلبة فنادونى على حين غفلة وأمرنى المأمور بالذهاب الى السجن لكتب المسجونين وأصحبنى رجلا من أغوات المأمورية فلما دخلت السجن أحضروا باشا من الحديد ووضعوه فى رقبتى وتركت مسجونا فداخلنى مالا مزيد عليه من الخوف فلبثت فى السجن بضعة وعشرين يوما فى أوساخ المسجونين وقاذوراتهم وصرت أنتحب فرق لى السجان لصغر سنى فقربنى الى الباب وواسيته بشئ من النقود التى كانت سبب سجـنى وكنت أرسلت الى والدى بحبسى فذهب الى العزيز وكان بناحية منية القمح وقدم له قصتى فى عرضحال فكتب باخلا سبيلى وأخذ والدى الامر بيده وقبل حضوره الىّ أتى الى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعـة القطن بنواحى أبو كبير وأخبره ان المأمور محتاج الى كاتب يكون معه بماهية وكان السجان يميل الىّ فـدله علىّ ووصـفنى له بالنجابة وحسن الخط وعرفه مسكنتى وما أنا فيــه قال الخادم الىّ وطلب منى ان أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور فكتبت عريضة واعتنيت فيها وناولتها للخادم مع غازى ذهب قيمته عشرون قرشا ليسـلك لى الطريق عنـد مخدومه ووعدته باكثر من ذلك أيضا فاخذها وبعد قليل حضر بامر الافراج عنى وأخذنى معه حتى قربت من المأمور وكان يسمى عنبر أفنـدى فنظرت اليه فاذا هو اسود حبشى كأنه عبد مملوك لكنه سمح جليـل مهيب ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه وهو يلقى عليهم التنبيهات فتأخرت حتى انصرفوا فدخلت عليـه وقبلت يده فكلمنى بكلام رقيق عربى فصيح وقال لى تريد ان تكون معى كاتبا ولك عندى جراية كل يوم وخمسة وسبعون قرشا ماهية كل شهر فقلت نعم ثم انصرفت من أمامه وجلست مع الخدامين وكنت أعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديه جماعة من مشاهير البلاد أصحاب الثروة

والخدم والحشم والعبيد فاستغربت مارأيته من وقوفهم بين يديه وامتثالهم أوامره وكنت لم أر مثل ذلك قبل ولم أسمع به بل أعتقد أن الحكام لايكونون الا من الاتراك على حسب ماجرت به العادة فى تلك الازمان وبقيت متعجبا متحيرا فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد و يقبلون أيديهم وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب فكان ذلك من دواعى ملازمتى له وفى ثانى يوم حضر والدى بأمر العزيز فسلمت عليه وأدخلته على المأمور وعرفته اياه فبش فى وجهه وأجلسه وأكرمه وكان والدى جسل الهيئة أبيض اللون فصيحا متأدبا آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه فكلمه فى شأنى فقال له انى قد اخترته ليكون معى وجعلت له مرتبا فان أحببت فذاك فشكر له والدى ورضى أن أكون معه وذكر له أصولنا وحليتنا وانصرف من مجلسه مسرورا ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور فقلت له هذا المأمور ليس من الاتراك لانه اسود فاجابنى بانه يمكن أن يكون عبدا عتيقا فقلت هل يكون العبد حاكما مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاما فضلا عن العبيد فجعل هو يجيبنى بأجوبة لاتقنعنى فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته فاقول وما معرفته فيقول لعله جاور بالازهر وتعلم فيه فاقول هل التعلم فى الازهر يؤدى الى أن يكون الانسان حاكما ومن خرج من الازهر حاكما فقال ياولدى كلنا عبيد الله والله تعالى يرفع من يشاء فاقول مسلم لكن الاسباب لابد منها وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعارا لم أقنع بها ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره و بعد يومين سافر عنى وتركنى عنده ثم حدثت لى فكرة أخرى مع الفكرة الاولى فكنت أقول فى نفسى ان الكتابة والماهية كانت هى السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك فلو فعل المأمور معى مثل مافعل الكاتب فمن يخلصنى واستمرت الفكرتان فى بالى وكانت همتى فى

التخلص

التخلص من كل ذلك ومن أمثاله وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها وفى أثناء ذلك اصطحبت بفراش له فجعلت أتفحص منه من أخبار سيده وأسباب ترقيه وكنت أسترق منه ذلك استراقا بحيث أخلل هذا الكلام بغيره فاخبرنى أن سيده مشترى ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر أدخلته سيدته مدرسة قصر العينى لما فتح العزيز المدارس وأدخل فيها الولدان وأخبرنى أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك وأن الحكام انما يؤخذون من المدارس فحينئذ حاك فى صدرى أن أدخل المدارس وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين فافادنى أنه يدخلها صاحب الواسطة فشغل ذلك بالى زيادة ومع ذلك فلم تفتر همتى وسألته عن قصر العينى وعن طريقه وكيف الاقامة فيه فاخبرنى عن ذلك كله وأثنى على حسن اقامتهم بها ومأكولهم وملبوسهم واكرامهم فازددت شوقا وكنت أكتب عندى كل ما يخبرنى به من بيان الطريق وقدر المسافة وأسماء البلاد التى فى الطريق وقامت بنفسى فكرة التخلص والتوصل الى المدارس فطلبت الاذن فى زيارة أهلى فاذن لى بخمسة عشر يوما فسافرت الى أن وصلت فى يوم السبت الى بنى عياض قرية فى طريقى فتقابلت مع جملة أطفال تحت قيادة رجل خياط مع كل واحد دواة وأقلام فجلست معهم تحت شجرة وتحادثنا فظهر لى أنهم تلامذة من مكتب منية العز وكان ذلك فألا حسنا ورأوا خطى فوجدوه أحسن من خطوطهم فقال بعضهم لبعض لو لحق هذا بالمكتب لكان جاويشا فقال الخياط ذلك قليل عليه فان خط الباشجاويش الذى عندنا لايساوى هذا الخط فسألتهم ماالجاويش وما الباش جاويش فافادونى أنهم المقدمون فى المكتب فجعلت أستفهم عن المكتب وصفته وجعل الخياط يحسن لى أوصافه ويغرينى على دخوله وأفهمنى أن نجباء المكاتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة فرأيت ذلك غاية مرغوبى فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب فاذا ناظره من

معارف والدى فاراد أن يمنعنى من الانتظام فى عقد التلامذة واجتهد فى ذلك لمرضاة والدى فلم أسمع كلامه وبقيت فى المكتب خمسة عشر يوما وكان الناظر قد أرسل الى والدى فلما جاءه قص عليه خبرى وأراه انى راغب جدا وانى قلت له ان لم يكتبنى فى المكتب اشتكيته ثم دبر معه حيلة على أخذى على حين غفلة منى ومن التلامذة فانتظر خروجنا للفسحة والأكل فى وقت الظهر فاختطفنى والدى الى بلدتنا وحبسنى فى البيت نحو عشرة أيام كل ذلك ووالدتى تبكى منى وعلىّ وتستعطفنى للرجوع عما يوجب فراقهم وتحلفنى ان أرجع عن تلك النية فوعدتها بالرجوع عن ذلك ارضاء لخاطرها فاطلقونى وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها وأبعدونى عن حرفة الكتابة التى ربما تكون سببا لفراقهم فبقيت كذلك مدة حتى اطمأن خاطرهم وظنوا ان فكرتى ذهبت عنى مع انها لا تفارقنى وانما كنت أخفيها الى ان انتهزت فرصة فى ليلة من الليالى فصبرت الى ان ناموا جميعا وأخذت دواتى وأدواتى وخرجت من عندهم خائفا أترقب وتوجهت تلقاء منية العز وكان ذلك آخر عهدى بسكناى بين أبوى وكانت ليلة مقمرة فمشيت حتى أصبحت فدخلت منية العز ضحى ولم يرنى الناظر الا وأنا مع الاطفال فى داخل المكتب والتزمت ان لا أخرج منه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافى ثم حضر والدى وعمل طرق التحيل علىّ هو والناظر فلم ينجع ذلك فىّ ورجع بلا حاجته وجعل يتردد علىّ طمعا فى أخذى من المكتب حتى جاء ناظر مكتب الخانقاه عصمت أفندى لفرز نجباء التلامذه الى قصر العينى فكنت ممن اختير لذلك فحضر والدى واشتكى لعصمت أفندى فقال له هذا ابنك أمامك وهو مخير فخيرونى فاخترت المدارس فعند ذلك بكى والدى كثيرا وأغرى علىّ جماعة من المعلمين وغيرهم ليستميلونى فلم أصغ لهم وكان ماقدر الله ولا راد لما قدره فدخلت مدرسة قصر العينى فى سنة احدى وخمسين ومائتين وألف وأنا يومئذ فى سن المراهقة وصرت فى فرقة برعى أفندى فوجدت المدارس على

خلاف

خلاف ماكنت أظن بل بسبب تجدد أمرها كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها والتربيــة والتعليمات غير معتنى بها بل كان جل اعتنائهــم بتعليم المشى العسكرى فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعــد الأكل وفى أماكن النوم وكان جميع المتكلمين على التلامذة يؤذونهــم بالضرب وأنواع السب والاهانة من غير حساب ولا حرج مع كثرة الاغراض والاعراض عن الاعتناء بشؤونهم من ماكولات وخلافها وكانت مفروشاتهم حصر الحلفا وأحرمة الصوف الغليظ من شغل بولاق ومن كراهتى للطبيخ المرتب لنا جعلت ادامى الجبن والزيتون وكان برعى أفندى يراعينى بالنسبة لغيرى وكان معى قليل من النقود جعلته أمانة تحت يده فلما رأيت هذه الحالة ضقت ذرعا وظننت أنى جنيت على نفسى فى دخولى المدارس التى بهذه المثابة ثم لتغير الهواء المعتاد وكثرة ما قام بى من الافكار اعترتنى الامراض وطفح الجرب على جسمى فادخلونى الاسبتالية فتراكمت علىّ الامراض حتى آيسوا من حياتى ولكن الله سلم وفى أثناء ذلك حضر والدى وطلب ان يرانى فلم يمكنوه من الدخول فجعــل لبعض التمارجية خمسين محبوبا من الذهب جعلا على ان يخرجنى من الاسبتالية سرّا ليخلصنى مما أنا فيه فلم أشعر الا والتمارجى قد كسر شباك الحديد من المحل الذى أنا فيه وأخبرنى بمرغوب والدى وانه واقف ينتظرنى خارج المدرسة وأراد ان ينزلنى من الشباك و يوصلنى اليه ليأخذ جعله فمالت نفسى لاجابته والذهاب مع والدى وترك المدارس وأهلها لما رأيته من الشدائد وعدم التعليم وما لحقنى من الجوع فى الاسبتاليه حتى كنت أمص العظــم الذى يلقيه الآكلون لكن فكرت فى عاقبة الهروب فانهم كانوا يطلبون من يهرب من التلامذة و يقبضون على أهله ويقيدونهم و يهينونهــم فامتنعت من الخروج معه فاجتهــد فى التحيــل علىّ وتسهيل الامر لدىّ فابيت وقلت أصبر على قضاء الله وأنا الجانى على نفسى وقلت له بلغ والدى السلام وسله ان يدعو لى وان يبلغ والدتى عنى السلام ثم ان والدى

توسط حتى دخل عندى ورآنى ورأيته وقبلنى وقبلته وبكى وبكيت ثم ودعنى ومضى لسبيله وله زفرات ولى عبرات ولسان الحال يقول

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

ثم شفيت وخرجت الى المدرسة واشتغلت بدروسى ولم أمرض بعد ذلك وفى أواخر سنة اثنتين وخمسين نقلونا الى مدرسة أبى زعبل وجعلوا قصر العينى لمدرسة الطب خاصة كما هو الآن فكانت ادارة المدارس فى أبى زعبل كما كانت فى قصر العينى الا انه اعتنى بالتعليم شيأ بسبب جعل نظرها للمرحوم ابراهيم بك رأفت وكان أثقل الفنون علىّ وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو فكنت أراها كالطلاسم وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة وبقيت كذلك مدة الى ان جمع المرحوم ابراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالنا الى مدرسة أبى زعبل وجعلهم فرقة مستقلة فكنت أنا منهم بل آخرهم وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون وان هذه الحروف التى اصطلحوا عليها انما تستعمل فى أسماء الاشكال وأجزائها كاستعمال الاسماء للاشخاص فكما ان للانسان ان يختار لابنه ماشاء من الاسماء كذلك المعبر عن الاشكال له ان يختار لها ماشاء من الحروف فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت مايقول وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ ولم أقم من أول درس الا على فائدة وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين فلم تكن لهم هذه الطريقة وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى وبقيت فى النحو على الحالة الاولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعلم السيئة وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهانا على سوء تعليم المعلمين وان سوء التعليم

هو

هو السبب فى تأخر التلامذة وفى تلك السنة وهى سنة ٥٥ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة سولاق فاختارونى فيمن اختاروه فاقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها وكنت فيها دائما أول فرقتى وقلفتها فتلقيت بها الجزء الاول من الجبر على المرحوم طائل أفندى وكذا تلقيت عنه علم المكانيكة وعلم الديناميكة وتركيب الآلات وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى وعلم الادروليك على المرحوم دقلة أفندى وعلم الطوبوغرافيا والتروزية على المرحوم ابراهيم أفندى رمضان وعلم الكيميا والطبيعة والمعادن والجيولجية وحساب الآلات على المرحوم أحمد بك فايد والهندسة الوصفية وقطع الاحجار وقطع الاخشاب والظل والنظر بعضه على ابراهيم أفندى رمضان وبعضه على المرحوم سلامه باشا وتلقيت عليه أيضا خاصة القسموغرافيا ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها اذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء مايلقيه المعلمون وكان المعلمون يومئذ يبذلون غاية مجهودهم فى التعليم فكان يندر ان يستوفى تلميذ فى كراسة جميع ما يلقى اليه خصوص الاشكال والرسوم ولذلك كان الامر اذا تقادم أو خرجت التلامذه من المدارس يعسر عليهم استحضار ماتعلموه فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه وفى آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بطبعة الحجر بعض كتب فاستعانت بها التلامذة وحصل منها النفع ثم تكاثر طبع الكتب شيأ فشيأ الى الآن فصارت تطبع الفنون باشكالها ورسومها فسهل بذلك تناولها واستحضار مافيها ثم فى سنة ٦٥ عزم العزيز على ارسال أنجاله الكرام الى مملكة فرانسا ليتعلموا بها وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنساوى الى المهندسخانة فانتخب عدة من تلامذتها فكنت فيهم

وكان ناظرها يومئذ لاميربك فاراد ان يبقيني بالمهندسخانة لاكون معلما بها فعرضت على سليمان باشا انى أريد السفر مع المسافرين وجعل الناظر يحتال على وأحال على الخوجات ليثبطونى عن السفر وقالوا لى ان بقيت ها هنا تأخذ الرتبة حالا وتترتب لك الماهية وان سافرت تبقى تلميذا وتفوتك تلك المزية ورأيت ان سفرى مع الانجال مما يزيدنى شرفا ورفعة واكتسابا للعارف فصممت على السفر مع انى أعلم ان أهلى فقراء ويعود عليهم النفع من الماهية وهم منتظرون لذلك لكن رأيت الكثير الآجل خيرا من هذا القليل العاجل فحصل ماأملته والحمد لله فسافرنا الى تلك البلاد وجعل مرتبى كل شهر مائتين وخمسين قرشا ماهية كرفقتي فجعلت نصفها لاهلى تصرف لهم من مصر كل شهر وكانت هذه سنتى معهم منذ دخلت المدارس فاقمنا جميعا بباريس سنتين فى بيت واحد مختص بنا ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس والضباط والناظر من جهادية الفرنساوية لان رسالتنا كانت عسكرية وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم (وهنا نكتة نذكرها) وهى ان معلومات رسالتنا كانت مختلفة فبعضنا له المام بالتعليمات العسكرية فقط مثل الذين أخذوا من الطوبجية والسوارى والبيادة والبعض له المام بالعلوم الرياضية ولا يعرفون اللغة الفرنساوية كالمأخوذين من المهندسخانة الذين أنا منهم والبعض له معرفة باللغة الفرنساوية وكان بعض هؤلاء معلمين فيها بمدارس مصر فاقتضى رأى الناظر ان يجعل المتقدمين فى الرياضة واللغة الفرنساوية فرقة واحدة وكنت أنا منهم وأمر المعلمين ان يلقوا الدروس للجميع باللغة الفرنساوية لافرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لايفهمها ففعلوا وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد اعطاء الدروس فكان العارفون باللغة يخاون علينا بالتعليم لينفردوا بالتقدم فكثنا مدة لانفهم شيأ من الدروس حتى خفنا التأخير وتكررت منا الشكوى لتغيير هذه الطريقة وتعليمنا بكلام

نفهمه

نفهمه فلم يصغ لشكوانا فتوقفنا عن حضور الدرس أياما فحبسونا وكتبوا فى حقنا للعزيز محمد على فصدر أمره بالتنبيه علينا بالامتثال ومن يخالف يرسل الى مصر محددا نخفنا عاقبة ذلك وبذلت جهدى وأعملت فكرى فى طريقة يحصل لى منها النتيجة ومعرفة اللغة الفرنساوية فسألت عن كتب الاطفال فنبئونى عن كتاب فاشتريته واشتغلت بحفظه وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ولزمت السهاد وحرمت الرقاد فكنت لاأنام من الليل الا قليلا حتى كان ذلك ديدنا لى الى الآن فحفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب ثم حفظت جزأ عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضا وحفظت أسماء الاشكال الهندسية والاصطلاحات كل ذلك فى الثلاثة شهور الاول وكانت العادة ان الامتحان فى رأس كل ثلاثة شهور وكنت مع ذلك ألتفت للدروس التى تعطيها الخوجات فأثمر الحفظ معى ثمرة كبيرة وصرت أول الرسالة كلها بالتبادل مع حماد بك وعلى باشا ابراهيم ولما حضر الى مدينة باريس المرحوم ابراهيم باشا سرعسكر الديار المصرية حضر امتحاننا هو وسرعسكر الديار الفرنساوية مع ابن ملكهم وأعيان فرانسا وجملة من مشاهير النساء الكبار فاثنى الجميع علينا الثناء الجميل وفرقت علينا المكافئات نحن الثلاثة فناولنى المرحوم ابراهيم باشا مكافئتى بيده وهى المكافئة الثانية وكانت نسخة من كتاب جغرافيا مالطبرون الفرنساوى باطلسها منهبة ودعينا للاكل مع سرعسكرنا ابراهيم باشا ولما رجع الى مصر صار يثنى علينا عند العزيز وغيره وبعد تمام سنتين تعين الثلاثة الاول من فرقتنا وهم أنا وحماد بك وعلى باشا ابراهيم الى مدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بناحية ميتس من مملكة فرنسا أيضا وأعطينا رتبة الملازم الثانى فاقمنا بها سنتين أيضا وتعلمنا فيها فن الاستحكامات الخفيفة والاستحكامات الثقيلة والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية والالغام وفن الحرب وما يلحق به مع اعادة جميع ماسبق تعلمنا اياه بتخليص من

المعلمين فى عبارات وجيزة جامعة ولم يحصل امتحاننا فى هـذه المدرسة الا فى آخر السنتين فكنا فى النمرة الخامسة عشرة من نحو خمسة وسبعين تلميذا ثم تفرقنا الى الالايات فكنت فى الالاى الثالث من المهندسين الحربيين فلقت فيه أقل من سنة وكان المرحوم ابراهيم باشا يودّ اقامتنا فى العسكرية حتى نستوفى فوائدها ثم نسيح فى الديار الاورباوية لنشاهـد الاعمال ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعادتها وكان ذلك نعم المقصد ولكن أراد الله غير ماأراد هو وتوفى الى رحمة الله تعالى وفى سنة ٦٦ من الهجرة تولى حكومة مصر المرحوم عباس باشا فطلبنا للحضور الى مصر نحن الثلاثة وكان علىّ دين لبعض الافرنج نحو الستمائة فرنك وكانت الاوامر المقررة ان لايسافر أحد الا بعد وفاء دينه وان من يأتى منا الى مصر مدينا يوضع فى الليمان فوقعت فى أمر خطير وبقيت متحيرا وطلبت من رفقتى ان يسلفونى فقالوا ماعندنا مانسلفك اياه وأنا أعلم تيسر بعضهـم واقتدارهم فقعدت فى محل اقامتى أفكر فيما أصنع واذا بصاحب لى من الافرنج دخل علىّ يدعونى للاكل عنده حيث انى مسافر فوجـد حالى غير مايعهد فسألنى فاخبرته فقال لاتحزن قل ياسيد يابدوى يامن تجيب الاسير خلصنى مما أنا فيه فقلت له ليس الوقت وقت هزل فقال هـذا أمر هين لايهمنك ثم ذهب فغاب قليلا ورجع الىّ بكيس رماه أمامى فاذا فيه قدر الدين مرتين وقال لى بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل الىّ وفاءه ولم يأخذ منى سندا بوصول المبلغ وقال أنا أكتفى بالقول منك وقد كان وحضرنا الى مصر فى تلك السنة وأرسلت اليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة ومن حينئذ بطل المكتب الذى خصصه العزيز للتلامذة فى بلاد أوربا وبطلت الرسالة المصرية ومن بقى هنالك كان فى مدارس الفرنساوية تحت نظارتهم بمصروف على الميرى ولما جئنا الى مصر مكثنا جملة أيام لاندرى مايفعل بنا ثم طلبنا الى طرف حسن

باشا

باشا المناسترلى وهو الكتخدا يومئذ وأحسن الينا نحن الثلاثة دون غيرنا برتبة
يوزباشى أول وتعينت خوجة بمدرسة طره وتعين على باشا ابراهيم وحماد بك
فى آلاى الطوبجية بطره أيضا وتعين الذين كانوا بمدرسة أركان حرب
الفرنساوية فى معية رئيس رجال أركان حرب سليمان باشا الفرنساوى برتبتهم
الاولى وهى رتبة الملازم ورفت الباقون ثم فرزت تلامذة المدارس وتشكلت
مدرسة المفروزة من متقدمى تلامذة جميع المدارس ولم يبق بمدرسة طره الا
جماعة قليلون متقدمون فى السن قد أزمنوا فى المدرسة وكان ناظرها يومئذ برنستو
بك من ضباط طوبجية فرنسا المعروفين وكان رجلا رفيق الطبع حسن
الاخلاق حسن التدبير حسن القيام بوظائفه فاحضرنى مع باقى المعلمين وقال لنا
ان التلامذة الباقين صاروا الى ماترون من قلة العدد وكبر السن وطول المدة
وأخاف ان ذلك يدعوكم الى التكاسل لكنى أرجوكم كما هو الواجب عليكم ان
تبذلوا الجهد معهم زيادة حتى تستميلوهم الى الاستفادة على قدر الامكان وأملى
ان هذه الحالة لاتدوم وعما قليل تستقيم الاحوال وعلىّ وعليكم ان نقوم
بواجب الامتثال واداء ماعلينا ثم قال لى خصوصا انك قد اشتغلت بفن الهندسة
الحربية وقد بلغنى ان جاليس بك يرغب ان تكون معه وألح كثيرا فى طلبك
ولم يجب الى مرغوبه وأظن ان الامر يؤل الى الحاقك به فلا تضجر واصبر
فعاقبة الصبر خير والآن لم يكن عندك الا تلميذ واحد وعن قريب ألحق لك
به غيره فشكرناه على نصيحته وانصرفنا واشتغل كل منا بما نيط به وفى تلك المدة
أهلت بكريمة معلى فى الرسم بمدرسة أبى زعبل وكان أبوها قد مات وصارت
الى حالة الفقر فتزوجت بها لما كان لوالدها علىّ من حق التربية والمعروف
ثم حدثتنى نفسى ان أستأذن لزيارة أهلى بعد هذه الغيبة الطويلة فكلمت
الناظر فى ذلك فقال لى ان من يسافر يقطع نصف ماهيته وأنت الآن محتاج اليها
فالاحسن ان تصبر حتى أكلم سليمان باشا الفرنساوى ليأخذك معه فى

مأمورية استكشاف البحيرة والسواحل فاذا حصل ذلك يتم مرغوبك بسهولة وقد حصل وأخذت المأمورية وسافرت معه ولما كنا بدمياط انفصلت عنه فى جهة من المأمورية وبعد ان سحت البحيرة وحررت جرنالها ورسمها ذهبت الى بلدتنا بربال وكان أهلى قد رجعوا اليها قبل ذلك بمدة فوجدت ان أبى قد سافر الى مصر لزيارتى ولم أجد فى المنزل الا والدتى وبعض اخوتى وكان دخولى عليهم ليلا فطرقت الباب فقيل من أنت فقلت ابنكم على مبارك وكانت مدة مفارقتى لامى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولا سمعت صوتى فقامت مدهوشة الى ماوراء الباب وجعلت تنظر وتحد النظر وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية لابسا سيفا وكسوة تشريف وكررت السؤال حتى علمت صدقى ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشيا عليها ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرط وجا أهل البيت والاقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا وبقينا كذلك الى الصباح والناس بين ذاهب وآيب ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الاكرام وتريد عمل ولمة وهى فارغة اليد ورأيتها تبكى ففهمت حقيقة الحال فناولتها عشرة بنتو كانت بجيبى ففرحت وأولمت فاقت عندهم يومين ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود ورجعت الى دمياط وأوردت نتيجة الاستكشاف على رئيس الرجال فوقعت عنده موقع الاستحسان وأثنى على وأخبرنى انه استحصل على أمر من عباس باشا بالحاقى بمعية جاليس بك فقبلت يده وشكرت له ولما رجعنا الى المحروسة استأذنته وسافرت الى الاسكندرية بعيالى وأخ وأخت لى صغيرين كنت أربيهما فلما وصلت هناك تركتهم فى المركب وذهبت الى جاليس بك فوجدت عنده سليمان باشا الفرنساوى قد سبقنى وكذا غيره من الامراء والضباط فجلست بعد اداء الواجب وبينما فنجان القهوة بيدى اذا بمكتوب وارد بالاشارة من المرحوم عباس باشا بطلبى حالا فى الوابور المتهيئ للقيام فاغتم لذلك جاليس بك وداخلنى مالا مزيد عليه من الخوف لما كنت

أعلم

أعلم مما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء وكان لى اجتماعات
بالخديوى اسماعيل وغيره منهم فهوّن علىّ سليمان باشا الفرنساوى وقال لعله
يريد ان يجعلك معلما لابنه لانه تكلم فى ذلك مرارا فلا تخف فقلت ان أهلى
فى المركب وكيف أصنع بهم فقال أنا أنوب عنك فيهم وأرسلهم وراءك الى مصر
فخل عنك هذا الامر وامضى بسلامة الله فمن غير ان أرى عيالى ولا ان
يعلموا بى سافرت فى الوابور وأنا بين راغب وراهب ولما تمثلت بين يدى المرحوم
عباس باشا أنا وحماد بك وعلى باشا ابراهيم قال لى أنت على أفندى مبارك قلت
نعم فقال ان أحمد باشا (يعنى أخا الخديوى السابق) قد أثنى عليك فقد جعلتكم
فى معيتى وقد أمرت بامتحان مهندسى الارياف ومعلمى المدارس لان الكثير
منهم ليسوا على شئ وجعلتكم من أرباب الامتحان وشرط علينا ان لا نتكلم
الا بالصدق ولو على أنفسنا واذا عثر على ان أحدا منا كذب فى شئ فجزاءه
سلب نعمته والباسه لبس الفلاحين وسلكه فى سلكهم ثم حلفنا على ذلك
واحدا واحدا فحلفنا وحينئذ أنعم علينا برتبة الصاغقول أغاسى وأعطانا نيشانات
الرتبة وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب فيها ثلاثة
أحجار من ألماس وخرجنا فرحين واشتغلنا بما نيط بنا على الوجه الاتم وسافرنا
معه الى الجهات القبلية وصار امتحان المهندسين وتعويض كثير بآخرين من
أرباب المعارف الذين تربوا فى المهندسخانة وفى هذه السفرة أحيل علينا
الكشف على شلال اصوان لبيان الطريق الاوفق لسير المراكب فاستكشفنا
ذلك وقدمنا به جرنالا ورسما فأتى على الغرض المطلوب ومذ كنا باسيوط أمرنا
بالذهاب الى منفلوط لبيان مايلزم عمله فى تحويل البحر عنها فتوجهنا مع
الكاشف جمال الدين كبير هذه المدينة وقررنا مايلزم اجراءه لمنع هذا الداء
العضال عنها فاجرى وحصلت نتيجته ثم لما عدنا الى المحروسة صدر الامر
بتوجهنا الى القناطر الخيرية للشورة مع موجيل بك باشمهندسها فيما يلزم عمله

لتسهيل سير المراكب بها ومنع العطب عنها فان الخطر كان متتابعا فيها لشدة التيار هناك لان القناطر كانت قد قاربت التمام ولم يبق الا الفتحات الوسط فكان كثير من المراكب يتعطل ان لم يعطب وكان موجيل بك قد أبدى رأيا بعمل ترع تمر فيها المراكب وقدمه للمرحوم عباس باشا فلم يوافقه عليه لما فى ذلك من كثرة المصرف وهذا هو السبب فى تعيننا فبالتداول حصل اتفاقنا على استعمال وابورات تسحب المراكب بالارغاطات وعرض ذلك عليه فاعجبه وأجرى به العمل وأبطل التصميم الاول وكان كثيرا مايحيل علينا أشغالا ترد من الدواوين مما يتعلق بالهندسة فنقوم بها وفى أواخر سنة ٦٦ كان قد عرض عليه من طرف لاميربك ترتيب للمدارس الملكية والرصدخانة يبلغ منصرفه نحو عشرين ألف كيس فاستعظمه وأحال علينا النظر فيه بشرط ان لانفشيه فتداولنا ذلك بيننا أياما ولم تتفق آراؤنا فخفت فوات الوقت قبل تمام العمل فشرعت وحدى فى عمله من غير انتظار لرأى أحد فعملت لجميع المدارس ترتيبا بلغ منصرفه ألف كيس وجعلت أساس ذلك احتياجات القطر لاغير وان جميع المدارس الملكية تكون فى محل واحد تحت ادارة ناظر واحد وأسقطت الرصدخانة بالمرة من الترتيب لعدم وجود من يقوم بها حق القيام اذ ذاك من أبناء الوطن مع احتياجها الى كثرة المصرف وأبديت فى الترتيب انه يلزم توجيه جماعة الى بلاد الافرنج ليتعلموا فنون الرصدخانة وبعد قدومهم يصير فتحها وادارتها وعينت لذلك محمود باشا الفلكى وكان اذ ذاك برتبة صاغقول أغاسى واسماعيل باشا الفلكى وحسين بك ابراهيم وكان من التلامذة الذين تمموا دروسهم ثم قرأت ذلك الترتيب على رفيقى فلم يوافقان عليه فقلت هو عندنا محفوظ فان لم نعمل غيره نقدمه ليمتنع عنا اللوم وقد كان ذلك عين الصواب لانه بعد قليل طلب منا تقديم الترتيب ولم نكن عملنا غيره هذا فقدمناه فاستغربه المرحوم عباس باشا وتعجب مما فيه من الاصول المخترعة مع

قلة

قلة مصرفها وقال من عمل هـذا فقلت أنا عملتـه ووجد آراء صاحبي مختلفة ومخالفة لذلك فاحال النظر فيه على مجلس ينعقد من جميع رؤساء الدواوين مع حضوري وحضور لامبير بك فانعقد المجلس ثمانية أيام و بعد المناقشة الطويلة استقر رأى الجميع على هذا وصدرت خلاصة باستحسانه واستحقاقي رتبة أمير آلاى فطلبني المرحوم عباس باشا وسألني عما أراه من نجاح هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به فقلت هذا رأيي فان أحسن مديره ادارته واجراه على فهم منه وبصيرة نجح والا فلا فان الساعة المضبوطة الدقيقة الصنعة يفسدها من لايحسن ادارتها من جاهل أو مفرط وتدوم على حالها اذا كانت بيد من يحسن ادارتها فعجب من جراءتي واستحسن جوابي وقال فهل تضمن ذلك فقلت كيف وقد ضمنـه الجميع بالقـرار الذى عملوه فاحال على نظارتها وأعطاني الرتبـة والنيشان وجعل على باشا ابراهيم معلم نجله الهامى باشا وحماد بيك ناظر قـلم هندسة برتبة بيكباشي فاجريت ادارة المدارس المهندسخانه وما يلحق بها وأحال على تعيين معلمى المفروزة وترتيب دروسها واختيار مايلزم لها من الكتب فاجريت ذلك وكان لى عنده منزلة وفى مدة نظارتى كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين وجعلت بها مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية والآلايات الجهادية نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة غير ماطبع فى كل فن بمطبعـة الحجر للهندسخانة وملحقاتها من الكتب ذات الاطالس والرسومات وغيرها مما لم يسبق له طبع واستعملت فى رسم أشكالها وأطالسها التلامذة لاغير وقد حصل منها الفوائد الجمة العمومية وكل ذلك كان لايشغلنى عن التفاتى للتلامذة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب وألاحظ المعلم كيف يلقى الدرس وكيف يؤدب التلامذة ولا يمضى يوم الا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط

والخدمة حتى الفراشين فى القيام بما عليهم كما ينبغى فامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة ولم أكتف بذلك بل رتبت على نفسى دروسا كنت ألقيها على التلامذة كالطبيعة والعمارة وألفت فى العمارة كتابا بقى متبعا فى التعليم بالمدارس وان لم يطبع وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة وقاموا بمصالح كثيرة وحصل بهم النفع العظيم وترقى جمع منهم الى الرتب العالية وشاع الثناء عليهم فى المعارف والآداب وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التى أجروها ولكثير منهم معرفة باللغة الفرنساوية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا فى أوروبا وخرج منهم معلمون متقنون فيها وفى غيرها وكان أمر المدارس كل حين لا يزداد الا صلاحا ولا التلامذة الا نجاحا ولا المعلمون الا اجتهادا وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الاسلوب ونجاح الطريقة المتبعة وكان مايحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعيا حثيثا لهم لزيادة الجد والاجتهاد وجرت بين المعلمين مواد المودة والالفة وتربت الاطفال على الاخوة وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة حتى وصلت النظارة للاكتفاء فى تأديب من فرط منهم أمر بالنصيحة واللوم وانقطع الشتم والسفه وكاد يمتنع الضرب والسجن وبالجملة فكانت أغراضى فيهم أبوية أنظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الاب لاولاده والى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية وقد تحقق لى نتيجة ماصرفته من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم فانه لما تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر ورمى عنده فى المدارس بعض المفسدين بلسان الحسد والفتنة ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة واختلقوا لها معايب لم تكن فيها

كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدا وبغضا انه لذميم

حتى أوجب ذلك انفصالى عنها وتعينت للسفر مع العساكر المحاربة المسكوب مع الدولة

الدولة العلية وذلك فى سنة سبعين ومائتين وألف خرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قهرا عن ضباطهم ووقفوا بساحل البحر أمام السفينة التى نزلت فيها للسفر الى الاسكندرية وجعلوا يبكون و ينتحبون انتحاب الولد على والده حتى بكت عينى لبكائهم ولكن انشرح صدرى لمشاهدة ثمرات غرسى وآثار تربيتى لحمدت الله ثم سافرت بمعية أحمد باشا المناكلى فاقمت فى هذه السفرة قريبا من سنتين ونصف وقد لطف الله بى وأحسن الىّ ورد كيد الحاسدين فى نحورهم فانى وان قاسيت فيها مشاق الاسفار ومايلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات والحرمان من المألوفات لكن رأيت بلادا وعوائد كنت أجهلها وعرفت أناسا كنت لاأعرفهم واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية فانى أقمت أربعة أشهر بالقسطنطينية اشتغلت فيها بتعلم تلك اللغة كما انى أقمت عشرة شهور فى بلاد القريم كان يحال علىّ فيها أمر المحاورة بين المسكوب والدولة العثمانية بامر مجلس العسكرية وأقمت ثمانية شهور فى بلاد الاناطول أغلبها فى مدينة كموشخانه أى (بيت الفضة) لوجود معدن الفضة هنالك وهى مدينة عامرة على رأس جبل وكان منوطا بى وأنا بها تسهيل سوق العساكر من مدينة ترابزان الواقعة على البحر الاسود الى مدينة ارضروم وكان ذلك فى وقت الشتاء وشدة البرد والثلج الكثير هنالك مع صعوبة مافيها من العقبات مابين جبال شاهقة وأودية منخفضة فقاسيت من ذلك شدائد مهمة وأهوالا مدلهمة وكنت أباشر كل فرقة فى سلوكها بنفسى لايصحبنى غير خادمى وجمعت المصابين بالبرد وجعلت لهم اسبتالية بمدينة . (كموشخانه) وهيأت مفروشاتها ولوازمها بعضها بالشراء والبعض من طرف أهالى المدينة ولاشتغال الحكماء بالالايات استعملت فى مباشرة المرضى رجلا مكيا له المام بالحكمة وسلكا فى المعالجة عادات أهل تلك الجهة فاثمر ذلك ثمرة عظيمة حتى اذ تهيئنا للسفر شهد لى بحسن المسعى أعيان المدينة وأكابرها من القاضى والعلماء

والامراء وكتبوا بذلك منبطة وضعوا فيها شهاداتهم وهى عندى الى الآن
وعليها أيضا ختم خالد باشا مأمور سوق العساكر العثمانية الى غير ذلك من
فوائد الاسفار على مابها من الاصار وكنت وأنا فى المدارس قد لحقنى الدين
بسبب مااحتجت اليه فى تنظيم بيتى على حسب ماتقتضيه وظيفتى وكذا
ماصرفته على ثلثمائة فدان أبعادية أحسن الىّ بها المرحوم عباس باشا بلا
واسطة فلما سافرت تركت ماهيتى للدين فوفته واقتصرت على ما كان يصرف
لى من التعيين وقد كفانى. وقام بجميع لوازمى وزاد منه ثلثمائة جنيه حضرت
بها الى مصر وأيضا فان رفقتى اللذين نشأت معهما كحماد بيك وعلى باشا ابراهيم
كانوا قد رفتوا من الخدامة فى مدة سفرى فلو بقيت للحقت بهم ومما اتفق
لى انى تزوجت قبل سفرى هذا بعد موت زوجتى الاولى بقريبة أحمد باشا
طوبسقال وكانت ذات مال وعقار وكانت يتيمة غرة بمنزلة الطفل الصغير لاتحسن
التصرف ولا تميز الدرهم من الدينار مع كثرة ايرادها وتعدد أملاكها وكان جميع
أمرها بيد غيرها والسبب فى ذلك ان أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب
أفندى فماتت عنده الأم وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة فتزوج بامرأة
أخرى فكانت زوجته الجديدة قيمة هذه اليتيمة والقائمة بامرها والكافلة لها
مع راغب أفندى فاتخذتها البنت كأمها وكانت المرأة لاتطلعها على شئ ولا
تمكنها من شئ فلا تفعل ولا تقول الا حسبما تريد منها هذه المرأة فلما دخلت
بها خافت المرأة ومن معها ان أطمع فى أموال هذه اليتيمة أوأعرفها بحقوقها
فتطالب بها وتنزعها من أيديهم فأساؤا عشرتى وبالغوا فى اساءتى الى حالة
لاتحتمل وغاية لاتتصور حتى مللت وملت بعد أشهر قليلة الى العزلة عنهم
بزوجتى فازداد بالمرأة الخوف من انتزاع مااستحوذت عليه من مال هذه اليتيمة
فتوسطت بجلبى أفندى الكلشنى الى والدة المرحوم عباس باشا ورمى فىّ
عند حسن باشا المناسترلى وأغرا بى أغوات السراى حتى داخلنى الخوف

واشتد

واشتد بي الكرب واتسعت القضية ودخلت المرأة المذكورة الى سراى الوالدة المشار اليها بعرضحال زورته عن لسان زوجتي بالشكاية مني كذبا فلما وقفت المشار اليها على الحقيقة صدر أمرها باعطائي زوجتي فعند ذلك استطلعت الكافلة المذكورة بمعونة چلبي أفندى وأعوانه وثيقة جردوا فيها اليتيمة عن جميع أملاكها وأشهدوا عليها بدين جسيم لكافلها ووضعوا عليها شهادة جماعة من الترك بخط الدرى كاتب المحكمة الكبرى وأنا لا أعلم بشئ من ذلك ثم أخرجوها لى مجردة ماعليها الا ثيابها مع أثاث قليل فاقمنا أياما فى راحة وكانوا قد دسوا لها من قبل انى أغدر بها وأقتلها استعانة بذلك على تجريدها من أملاكها بايهامها ان هذا أمر ظاهرى أرادوا به حفظ أموالها وأملاكها من تسلطي عليها وانتزاعى لها فيبقى ذلك عندهم حتى تريده فيكون لها متى شاءت حين تأمن غائلتي فلما ذهب خوفها وآمن روعها ولم تجد مني تطلعا لشئ من ذلك ولا أثر مما خوفوها به أخبرتني بالحجة التي جردوها بها وانها تركت حليها هنالك وطلبت مني الاذن فى التوجه اليهم لتأتى به حيث لم تجد شيأ مما كانت تخافه فقلت لها ان ذلك لايجدى وهذه حيلة تمت عليك فلم تسمع وذهبت ورجعت خالية اليدين باكية العينين حزينة آسفة على ماتم عليها من الحيلة فحملني الرأفة على أن أسعى لها فى استخلاص حقها فقدمت فى ذلك عرضحال بصورة الواقعة للمرحوم عباس باشا واتسعت القضية ونظرت فى الدواوين والمجالس ودخل فيها القاضي والمفتى ولما حصحص الحق دخل فيها چلبي أفندى بالوسائط حتى خوفني الكتخدا بالنفى الى السودان ان لم أكف عن هذه القضية وبعد طول النزاع تممتها بالصلح فرجع لها العقارات والاوقاف وضاع عليها المال وبطل عنها الدين ولم أصل الى هذه الغاية الا بعد ان قاسيت فى ذلك من الشدائد والاهوال وعجائب الاحوال مالو وصفته لطال الشرح واتسع المجال وقد بنيت بيتها من مالى وصرفت عليه نحو ستمائة

كيس وكان موقوفا عليها فارادت اشتراكى فيـه معها فى نظير ماصرفته وكان
ذلك لها بمقتضى شرط الواقف فقبلت ودخلت معها فى الوقفية وكتبت الوثيقة
بمحضر من العلماء والامراء والاعيان فلما كنت فى الاستانة دخلت عليها
كافلتها المقـدم ذكرها وقالت لها ان الرمل أخبر بان زوجك يموت فى سـفره
وصدق على ذلك جماعه من حواشيها وحسنوا لهـا ابطال الحجة المتضمنة حصتى
فى وقفيــة البيت ثم لاذوا بجماعــة من أصحابنـا الذين لنـا عليهـم المعروف
ليشهدوا لهم بان الحجة مزورة وان التى نطقت يوم كتب الحجة انما هى أختى
تمثلت بها فظنوها اياها وحملوها على ان كتبت فى عرضـا يتضمن انى أخـذت
أموالها ومتاعها ثم أرسلوه الى ابن عمها فى الاستانة وكنت معه فى محل واحد
فأرانيه فقرأته وأخذت نسخته وسلمته اليـه وقلت لاثمرة الآن فى المنازعـة
هنا فاحفظه عندك حتى نعود الى مصر وهنالك تظهر الحقيقة فان مت قبـل
ذلك فلها جميع مايورث عنى فلما رجعنا الى مصر عقـدنا لذلك مجلسا حضره
كاتب المحكمة والشهود وجمع من أعيان العلماء وجرى الحساب وهى حاضرة
فى المجلس فثبت لى عليها مائة وخمسة وعشرون ألف قرش عمله ديوانية غير
ستمائة كيس التى صرفتها فى عمارة البيت فبعد ثبوت حقى وظهوره تنازلت فى
المجلس عن جميع ذلك ولم آخذ الا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ماحصل
وباثبات تنازلى بعد الثبوت ثم بعد أيام قلائل تركتها وخرجت من البيت ولم
آخذ منه شيأ حتى تركت جوارى اللاتى كن فى ملكى وطهرت نفسى مما
نسبه الى أهل البهتان وأرحت نفسى من تلك الوساوس والهواجس

ثم بعد عودنا من هذا السفر الطويل خلى سبيل العساكر ولحقوا ببلادهم ورفت
كثير من الضباط فكنت ممن رفت وسكنت فى بيت صغير بالاجرة مع أخ لى
كنت تركته فى المدرسة عند السـفر مع ابن أخ آخر ليتربيا فيها فطردا منهـا
بعد سـفرى ولم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعدهـم فى مدة نظارتى ولم

تحصل

تحصل الشفقة عليهما الا من سليمان باشا الفرنساوى فانه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بعصر العتيقة على نفقته وشملهما برأفته ثم غرق ابن أخى فى البحر وبقى أخى الى ان جئت فالتحق بى فكانت حالتى بعد سبع سنين مضت من عودى من بلاد أوروبا كحالتى عند عودى منها وذهب مارأيتــه من الاموال والمناصب والوظائف وجميع ماكسبت يداى ولم يبق بالخاطر غير مافعل الناس معى من خير وشر وما أكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته حتى حلا لى التخلى عن الحكومــة وخدمتها وغضضت طرفى عن التطلع للوظائف والمناصب وعــزمت على الرجوع الى بلدى والاقامــة بالريف والاشــتغال بالزرع والتعيش من جانبه وترك الاشتغال بالقيل والقال وقلت عوضــنا الله خيرا فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ولنفرض انا مافارقنا البلد ولا خرجنــا منها وبينمــا أنا أتجهــز للســفر الى البلد على هــذه النيــة صــدر أمر بان جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعة للفرز فحضرنا وكان المنوط بالفرز أدهم باشا واسماعيل باشا الفريق وجملة من الامراء فكان أهم مايعتنون به معرفة عمر الانسان وكانوا يعرفون السن بالنظر الى السن فهــالنى هــذا الامر وثقل علىّ ووددت أن لاأكــون طلبت فلمــا وصلنى الفرز عافانى من ذلك أدهــم باشا لسابق معرفته بى وكتبت فى المختارين للخدمة فتعطلت عن السفر وبعد قليل تعينت معاونا بديوان الجهادية وأحيل علىّ النظر فى القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات وغــيرها من ملحقات الجهادية وألحقوا بى كاتبــا فاشتغلت بها زمنا وأتممنا جملة منها

وفى ذات يوم كان اسمــاعيل باشا الفريق ناظر الديوان اذذاك مشتغلا برسم بعض المناورات العسكرية فلم يحسن ذلك وتحير فى اتمامها فدعانى فرسمتها فى عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق فوقع عنده ذلك موقعا حسنا وأثنى علىّ ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا وطلب منى وضع اسمى على الرسم فقلت عافنى عن ذلك ولا

تذكرنى عنده فارانى ان فى ذلك فوائد جمة وانه عين الصواب ثم لما عرض الرسم عليه وتكلم معه عما تكلم أمر بابطال التحقيق وحفظ القضايا بالدفترخانة والحاقى بمستودعى الداخلية فبقيت كذلك زمنا قليلا وكان يحال على بعض القضايا ثم دعيت الى وكالة مجلس التجار فاقمت فيه شهرين وكان سلفى فيه رجلا من الارمن له سند قوى سهل له به الوصول الى المرحوم سعيد باشا فرمى فى بما رمى فرفعت من هذه الوظيفة وتأسفت لرفعى التجار البلديون لما رأوه من البت فى القضايا على وجه الحق فاقمت فى بيتى نحو ثلاثة أشهر ثم تعينت مفتش هندسة نصف الوجه القبلى فاقمت فيه نحو شهرين ثم خلفنى فى ذلك على باشا ابراهيم ثم دعانى المرحوم سعيد باشا لعمل رسم لاستحكامات أبى حماد ودعا على باشا ابراهيم للكشف على الجانب الغربى من النيل الى أصوان فاشتغلنا بذلك مدة بلا ماهية ولما تمت الرسم ذهبت اليه لعرض الرسم عليه وكان فى طرا فلم أتمكن من ذلك وصرت أتردد على طرا أياما لهذا القصد فلم يتيسر ثم قام الى قصر النيل فترددت على ذلك الموضع أيضا فلم يتم المقصود ثم قام الى الاسكندرية فتحيرت فى أمرى اذ كان لايثبت فى مكان ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه فالتزمت الاقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه وطالت المدة وفرغ المصروف ثم قدم الى مصر فذهبت اليه فلم أتمكن من الدخول اليه فقال لى مأمور التشريفات كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة فى وقت من الاوقات تتمكن منه وحضر على باشا ابراهيم أيضا فاصطحبنا ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا ماهية ولا شغل مع كثرة التنقلات من بلد الى بلد ومن موضع الى آخر ثم لما كان ذات يوم فى الجيزة وقع نظره على فنادانى وكلمنى وسألنى عما صنعت فى الرسم فقدمته له فنظر فيه قليلا ثم قال ابقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك ولكن ربطت لى ماهية وبقيت فى معيته زمنا بلا شغل الى ان كنا مدة بمريوط وكان معنا

المرحوم

المرحوم أدهم باشا فاخبرنى أنه صدر له الامر بترتيب معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب وسألنى عمن يليق للقيام بهذا الامر فعرضت نفسى لذلك فظن انى أهزل لاعتقاده ترفعى عن هذه الخدمة وقال أترضى أن تكون معلما لهؤلاء فقلت كيف لاأرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ثم وصلنا الى ماوصلنا اليه فلما عرض ذلك على المرحوم أحال علىّ تعليمهم فاصحبت معى اثنين من الافندية ورتبت مواد التعليم والطريقة التى يلزم اتباعها وشرعنا فى التعليم فكنت أكتب لهم حروف الهجاء بيدى ولعدم الثبات فى مكان واحد كنت أذهب اليهم فى خيامهم وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الارض وتارة بالفحم على بلاط المحلات حتى صار لبعضهم المام بالخط وعرفوا قواعد الحساب الاساسية فجعلت نجباءهم عرفاء استعنت بهم على تعليم الآخرين فازداد التعليم واتسعت دائرته واستعملت لهم فى تعليم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر الحبل والعصا لاغير فكنت اذا أردت توقيفهم على عملية كتقدير الابعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء أجرى ذلك لهم عملا على الارض وأبين لهم فوائده وغراته النظرية فكان يثبت فى أذهانهم حتى ان بعضهم كان يجريه أمامى فى الحال بلا صعوبة ووضعت فى ذلك كتابا مختصرا جمعت فيه اللازم من الحساب والهندسة وطرق الاستكشافات العسكرية وسميته تقريب الهندسة وطبع على مطبعة الحجر فانتفع به كثير من الناس خصوصا فى الالايات وتكرر طبعه وكنت جمعت أيضا جزأ فيما يلزم معرفته للضباط من فن الاستحكامات وسوق الجيوش وترتيبها وكيفية المحاربات ونحو ذلك لكنه لم يتم ولم يطبع وقد ضاع منى

وكنت فى أوقات الفراغ أشغل الزمن بالمطالعة وأكتب تعليقات أستحسنها فى ورقات جمعتها بعد ذلك فصارت كتابا مفيدا فى فنون شتى مما يحتاج اليه المهندسون وبقى عندى

الى ان اطلع عليه بعض معلمى الرياضة فى المدارس الملكية وغيرهم أيام نظارتى عليها فى مدة الحكومة الخديوية الاسماعيلية فرغبوا فى طبعه فطبع بمطبعة المدارس وسمى تذكرة المهندسين وكان المباشر لمقابلته وطبعه أولا السيد أحمد أفندى خليل ناظر مدرسة المحاسبة يومئذ وبعده على أفندى الدرندهلى أحد خوجات المهندسخانة الى أن تم طبعه وهكذا كانت جميع أوقاتى مشغولة بامثال ذلك وببعض مأموريات كانت تحال علىّ ثم لما رام المرحوم سعيد باشا التوجه الى بلاد أوروبا أمر برفت غالب من كان فى معيته فكنت فى جملة المرفوتين وكنت قبل رفتى تزوجت واشتريت بيتا بدرب الجاميز وشرعت فى بنائه وتعميره فكثر علىّ المصرف ولحقنى الدين حتى ضاق ذرعى وتشوّش طبعى وكان يومئذ قد صدر الامر ببيع بعض أشياء من تعلقات الحكومة زائدة عن الحاجة من عقارات وغيره وكان المأمور بذلك المرحوم اسماعيل باشا الفريق وكان لى من المحبين وكنت جاره فى السكنى فاستصحبنى معه الى بولاق وخلافها من محلات البيع فلما حضرت المزادات رأيت الاشياء تباع بابخس الاثمان ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والاشياء الثمينة العظيمة وفى جملتها الكتب التى كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس وكذا أشياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص والعقارات والفضيات والمرايات والساعات والمفروشات وغير ذلك وليتها كانت تباع بالنقد الحال بل كانت الاثمان تؤجل بالآجال البعيدة وبعضها باوراق الماهيات ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشترى فكان التجار يربحون فيها أرباحا جمة فلبطالتى واستدانتى وكثرة مصرفى مالت نفسى للشراء من هذه الاشياء والدخول فى التجارة ففعلت وعاملت التجار وعرفتهم وعرفونى وكثر منى الشراء والبيع فربحت واستعنت بذلك على المصروف واداء بعض الحقوق واستمر منى ذلك نحو الشهرين فازدادت عندى دواعى التجارة وصارت هى مطمح نظرى وقصرت عليها فكرى خصوصا

لما

لما تقرر عندى من اضطراب الاحوال وتقلبات الامور التى كادت ان تذهب منى ثمرات المعارف والاسفار بحيث كلما تقدمت فى العمر وكثرت العيال كنت أرى التقهقر ونفاد مااستعوزت عليه فآثرت حرفة التجارة على حرفتى الاصلية وصرفت النظر عن الخدمة الاميرية وقام بخاطرى ان أعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين مثلى على أن نبنى بيوتا للبيع والتجارة ونستعمل فيها أفكار الهندسة فلم أر من يوافقنى فهممت بالقيام بذلك بنفسى وشرعت فى العمل وبينما أنا فى حوالك هذه الاحوال أروم التخلص من تلك الاوحال اذ طرق المرحوم سعيد باشا طارق المنون فتوفى فى سنة تسع وسبعين ومائتين وألف وقام باعباء الحكومة بعده حضرة الخديوى اسماعيل باشا فالحقنى بعيته زمنا ثم تعينت لنظارة القناطر الخيرية وكانت الى ذلك العهد لم تقفل عيونها بالابواب مع أن أبواب بحر العرب كانت مرتبة من زمن المرحوم سعيد باشا وصرف عليها مبالغ جسيمة من طرف الحكومة وكان المانع من اقفالها ماقرره المهندسون من منع ذلك الى أن يجرى ترميمها وتقويتها لعدم جزمهم بمتانتها مع اضطراب آرائهم وكان أكثر النيل يمر من بحر الغرب وأخذ فى التحول عن بحر الشرق حتى كان فى زمن الصيف لا يدخل فى الترع الآخذة منه الا القليل من الماء وترتب على ذلك قلة زمام المنزرع الصيفى فى الجهات التى تسقى من هذا البحر وتعطلت بسبب ذلك منافع كثيرة وكان الخديوى كثيرا مايتردد الى القناطر الخيرية ويقيم بها فى كل مرة عدة أيام ويعتنى بأمرها وفى ذات مرة خاطبنى فى شأنها وفيما يلزم اجراؤه لتحويل النيل الى بحر الشرق الذى عليه أفواه أكثر الترع وعليه مدار ثروة أهالى تلك الجهات فقلت ان من ألزم الامور وأنفعها فى ذلك ان تقفل قناطر بحر الغرب اذ بذلك تتراجع المياه الى بحر الشرق وتتكاثر فيه ويتحول اليه بعض بحر النيل ولا يترتب على اقفالها كبير ضرر للقناطر لان ارتفاع الماء وراء السد لا يكون

كبيرا لانحدار النيل الى بحر الشرق فلا يحصل من ضغطه للقناطر تأثير بين
مع أن المهندسين الذين رأوا منع اغلاقها لم يجزموا بحصول الخلل وانما ذلك
على سبيل الظن فباغلاقها تظهر الحقيقة و يزول الشك فاذا حصل منه خلل
وصار معلوما تتدبر الحكومة فى تداركه وان لم يحصل حصل المقصود من
تكاثر المياه فى بحر الشرق الذى عليه مدار الزراعة الصيفية والمنافع العمومية
ولا يترك نفع محقق لضر متوهم يمكن تداركه فاستحسن منى ذلك ورآه صوابا
ورخص فى اقفالها فصارت تقفل وحصل من ذلك مالامزيد عليه من المنافع
العمومية وأما الخلل الذى كان متوقعا حصوله فانه ظهر فى بعض العيون الغربية
القريبة من البر الغربى فجعل عليها جسرا من الخشب أحاط بها فقربت حولها
جزيرة من الرمل حفظتها فلم يكن خللها مانعا من اقفالها كل سنة ثم لما حفر رياح
المنوفية أحيل على فى مدة نظارتى عمل قناطره ومبانيه فاجريتها على ماهى عليه الآن
وفى سنة اثنتين وثمانين اختارنى للنيابة عن الحكومة المصرية فى
المجلس الذى تشكل لتقدير الاراضى التى هى حق شركة خليج
السويس على مقتضى القرار المحكوم به من طرف أمبراطور فرانسا وكان
المعين نائبا من طرف الدولة العلية حضرة سرور أفندى وكذا كان لكل من
الحكومة الفرنساوية والشركة المذكورة نائب فتوجهنا للمرور على الخليج فمررنا
من السويس الى بورت سعيد وبعد المذاكرات والمداولات عملت الرسوم
اللازمة وتحرر بذلك القرار وتمت المسألة على أحسن حال وأحسن الى بعد
اتمامها برتبة المتمايز وأعطيت النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة وبعث الى
من طرف الدولة الفرنساوية بنيشان (أوفسيه ليثريون دونور) وفى شهر
جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين أحيلت الى وكالة ديوان المدارس تحت
رياسة شريف باشا مع بقاء نظارة القناطر الخيرية وبعد قليل انتدبنى الخديوى
اسماعيل للسفر الى باريس فى مسألة تخص المالية فكانت مدة غيابى ذهابا

وايابا

وايابا واقامتى بها خمسة وأربعين يوما وكانت سفرة مفيدة اغتنمت فيها فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك وتفرجت على مجاريها العمومية المعدة لقذف القاذورات والسائلات بها وهى عبارة عن مبان متسعة عظيمة الارتفاع تحت شوارع المدينة معقودة من أعلاها يتوصل اليها بسلالم فى فتحات مخصوصة فى الشوارع يدخل منها النور والهواء وفى جنبيها حوالى المجرى مصطبتان تمشى عليهما الشغالة والفعلة وينصب فى المجرى قاذورات المراحيض والمطابخ وغيرها وماء الامطار ونحوها بكيفية مدبرة بحيث لا يشم لها رائحة مع كثرة ما يسبل فيها وقد ركبنا صندلا يسير فى ذلك المجرى معدا لتنظيف المجرى وقذف ما به من المواد التى تعطل جرى الماء وذلك انه مصنوع بقدر المجرى وبه جرافة من أمامه ودولاب فاذا أرادوا تسييره يديرون الدولاب فينحط الصندل نحو القاع بقدر ما يريدون فيرتفع الماء خلفه زيادة عن الامام مع الانحدار الاصلى للمجرى فيندفع الصندل مسرعا فى السير فيطرد أمامه كل ما لاقاه وجميع هذه المواد تندفق فى نهر السين المار فى المدينة فى محل بعيد جدا عن المساكن فبالهذا العمل من عمل نافع تخلصت به المدينة من مياه الامطار الغزيرة الواردة عليها فى زمن الشتاء مع التخلص من القاذورات والروائح الكريهة التى لا تخلو منها الامصار لاسيما المدن الكبيرة ثم بعد قليل من عودتى أحسن الىّ فى سنة خمس وثمانين برتبة ميرميران وأحيلت الى عهدتى ادارة السكك الحديدية المصرية وادارة ديوان المدارس وادارة ديوان الاشغال العمومية وفى شهر شوّال من تلك السنة انضم الى ذلك نظارة عموم الاوقاف كل ذلك مع بقاء نظارة القناطر الخيرية والتحاقى برجال المعية فبذلت جهدى وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجباتها ولسبب اتساع ديوان السكة الحديدية

وكثرة أشغاله كنت أذهب اليه من بعد الظهر الى الغروب للنظر فيما يتعلق به وقد أجريت فى تنظيم السكة ومحطاتها ماذكرت بعضه فى الكلام على الاسكندرية فانظره وجعلت من الصبح الى الظهر لباقى المصالح وكنت قد تحصلت على الاذن بنقل المدارس من العباسية الى القاهرة رفقا بالتلامذة وأهليهم لما كان يلحقهم فى الذهاب الى العباسية من المشاق والمصرف الزائد فاحسن الى المدارس بسراى درب الجاميز التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى باشا فاضل فنقلت اليها التلامذة وأجريت فيها تصليحات لازمة للمصالح وجعل السلاملك للديوان ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى وجعل بها أيضا ديوان الاوقاف وديوان الاشغال فسهل على القيام بها وكانت كثرة أشغالى لاتشغلنى عن الالتفات الى مايتعلق باحوال التلامذة والمعلمين فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيا عند غدوى من البيت ورواحى وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية وكانت المكاتب الاهلية فى المدن والارياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعليم القرآن الشريف وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة فاستحسنت اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظيمها وترتيبها على الوجه الذى هى عليه ودعوت الى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والاعيان النبهاء فنظروا فيه واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه وصدر الامر الخديوى بالاجراء على حسبه ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه وأنشأت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كاسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها وانتخب لكل منها المعلمون والضباط وعين لها سائر الخدمة ورتبت بها أدوات التعليم ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الاطفال وأنشأ فى القاهرة والاسكندرية بعض مكاتب على هذا الاسلوب مثل مكتبى القربية أحدهما

للبنات

للبنات والآخر للاطفال الذكور ومكتب الجمالية ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفية ولاجل استفادة الاوقاف وتكثير ايرادها مع تخفيف المصرف على الحكومة كان بناء هذه المكاتب فى عقارات الاوقاف وعلى طرفها وربط لها على المكاتب ايجار يدخل خزينة الاوقاف وأجريت الاصلاحات اللازمة فى المكاتب القديمة فغيرت بعض مبانيها وأوضاعها الاصلية الى حالة تصلح لما صارت اليه المكاتب من النظام وترتبت لها النظار والمعلمون وأدوات التعليم ونحو ذلك وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة المصرف على الديوان فجعل على أهالى التلامذة المقتدرين شئ من النقود يؤخذ منهم برغبتهم كل شهر على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم استمالة لقلوبهم واستدعاء لرغبتهم وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس وفى كل مكتب وباقى المصروف يصرف من حاصلات الاوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات والمبرات وأطيان الوادى بمديرية الشرقية وكان قد أحسن على المكاتب الاهلية بهذه الاطيان وبعض أملاك آلت الى بيت المال من بعض التركات فكان من هذه الموارد يصرف كل مايلزم لهذه المكاتب بعد الايرادات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلامذة وكان القصد تعويد الناس على الصرف على أولادهم بالتدريج شيأ فشيأ حتى لايبقى مع توالى الازمان على الحكومة الا مايختص بالمدارس الخصوصية كالمهندسخانة والطب والادارة ونحوها وأما باقى المدارس فيكون الصرف عليها من الاهالى والاوقاف والاملاك المذكورة اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم وقد تأسس هذا المشروع وثبت وسرت فيه الى ان انفصلت عن المدارس وحصلت منه نتائج حسنة وخرج من التلامذة الذين تربوا بالمدارس فى مدتنا جم غفير توظفوا بالوظائف الميرية الشريفة ملكية وحربية وانتفعوا وانتفع بهم ثم لاجل تسهيل التعليم على

المعلمين والمتعلمين وصون ماتعلموه عن الذهاب جعل بالمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كل مايلزم من الكتب وأمشق الخط والرسم وغير ذلك وحيث كان من أهم ما يلزم للدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر فى هذا الامر المهم واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الامر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الازهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدرسة بعض الفنون المفقودة من الازهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط مع فنون الازهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ورتب لهم طعام فى النهار للغذاء وجعل الصرف عليهم من طرف الاوقاف ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ العلماء وغيرهم ليقوموا بامر تعليمهم وتدريبهم حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا و ينفعوا ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الاهلية بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك فلما أشيع هذا الامر وأعلن حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالازهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك فاختير منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب وصاروا فى التحصيل فحصلوا وأثمر ذلك المسعى وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها وحصل النفع بهم ولهم وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والادارة بان يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده سوى من يؤخذ الى غير المدارس من مصالح الحكومة وقرر ذلك وعلم بينهم فرغبت التلامذة فى التعلم واجتهدوا وحرصوا على التقدم وتحصلوا على مهمات الفنون

وتمكنت

وتمكنت الحكومة من توسعة دائرة التعليم بلا كبير مصرف ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع اليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الاجنبية أنشأ محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض وصرف عليه من مربوط المدارس فجاء محلا متسعا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم وقد كان الخديوى اسماعيل يرغب فى انشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الميرية وجهات الاوقاف فى المساجد ونحوها وأمرنى بالنظر فى ذلك فوصفت له المحل الذى أنشأ فعين لمعاينته جماعة من الامراء والعلماء فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام فصدر الامر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة فجمعت من كل جهة وجعل لها ناظر وخدمة وترتب لها مغير من علماء الازهر لمباشرة الكتب العربية وآخر لمباشرة الكتب التركية ونظمت لها لائحة صار نشرها تؤذن باباحة الانتفاع بها للطالبين وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها وعدم التفريط فيها فجاءت بحمد الله من أنفع الانشاآت وأثنى عليها الخاص والعام من الاهلين والاغراب اذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع وتطرق الاطماع فانها كانت تحت تصرف نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ولا يحسنون التصرف فيها ولا يقومون بواجباتها بل أهملوها وتركوها فسطت عليها عوارض متنوعة أتلفت كثيرا منها حتى صار السالم من الضياع مخرما بعضه بأكل الارض وبعضه بأكل الارضة وزاد ان تصرفوا فى أجودها بالبيع للاغراب بثمن بخس وحرموا الاهلين من الانتفاع بها وبعضها بحجر عليه فلا يتمكن أحد من النظر اليه فتخلصت من ذلك فضلا عن صونها من هذه العوارض ونظافتها ونظافة أماكنها وحسن ترتيبها كل فن على حدته وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها والنسخ والنقل فيها ورتب فيه مايلزم للكتابة من الادوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء

وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة وغيره مما كان يسمع به الانسان ولا يراه أولا يسمع به وأخذت بعد انشائها وافتتاحها فى تكميل الناقص من الكتب وتجديد شراء كل مايستحسن وأمكن تحصيله مما ليس موجودا بها من الكتب ومشى على هذه الطريقة كل من رضيها ورأى اتمام الفائدة بها ممن تولوا على نظارة المدارس والاوقاف بين مكثر ومقل ولأجل اتمام الفائدة ألحقت بهذا المحل محل للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضية اللازمة للمدارس وصرف لمشترى تلك الآلات نحو أربعة آلاف جنيه وبجميع ذلك سهل على التلامذة والمعلمين السير فى طرق التقدم وتقيدت لديهم شوارد الفنون وتمكنوا منها بالمعاينة والتمرن على استعمال تلك الآلات واجتلاء المعقول فى صورة المحسوس فتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمل ثم انه قد حصل من انضمام الاوقاف للمدارس مساعدة كل منهما للآخر مساعدة كلية اذ صار أمر التعليم فى المكاتب ملحوظا بعين المدارس فكان سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء وتيسر لمن أكملوا دروسهم الابتدائية فى مكاتب الاوقاف والمكاتب الاهلية المنتظمة دخول المدرسة التجهيزية والتدرج منها الى المدارس العالية وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والاهلية كل سنة عدد عديد كما يؤخذ من تلامذة المدارس الابتدائية الاميرية وأحيت المدارس كثيرا من عقارات الاوقاف المندرسة وانتفعت بها كما مرت الاشارة الى ذلك وكم من أهل خير فى الزمن السابق كانوا قد أنشأوا مدارس بالمحروسة والاسكندرية وكثير من مدن القطر للتعليم والتربية حسبة لله تعالى ووقفوا عليها أوقافا خيرية جمة يصرف عليها ريعها رغبة فى نشر العلوم وعود الفوائد على عموم الناس بل كثير منهم ألحق بذلك خزائن كتب شاملة لما يحتاج اليه فى التعليم ولكن لسوء تصرف نظارها انحرفت عن

الصراط

الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات وصار مايسلم من الهدم والتخريب يستعمل أكثره فى أغراض أخرى والمستعمل فى الغرض الاصلى على قلة لايستوفى فى سيره شروط الواقف وحد اللازم وساء حال التعليم فى المكاتب الحاصلة وقل المعلمون والمتعلمون وصار اجتماع الاطفال والمتعلمين بهذه الاماكن قليل النفع بحيث كان لايفيدهم الا الضياع والامراض الناشئة عن الوساخة والتفريط فحصل رجوع كثير من هذه العمائر الى أصلها المقصود منها والفائدة الموضوعة لها وانضمت الى ديوان الاوقاف العمومى لتكون ادارتها تحت نظره مشمولة بمناظرة ديوان المعارف وترتيبه فتخلص من اطماع النظار وحصل رم مااحتاج الى الاصلاح من المدارس ومن أوقافها التى يأتى منها الريع وانتزع ما استولت عليه الايدى من غير استحقاق فانضبط أمرها وايرادها فحييت هذه المآثر بعد موتها وعادت ثمراتها بعد فوتها ثم ان هذا النظر لم يكن قاصرا على المدارس وأوقافها بل حصل الالتفات لجميع الاوقاف من التكايا والمساجد وغيرها بالاصلاح والتجديد وكان مابالاقاليم من الاوقاف من أطيان وعقارات على كثرته غير ملتفت اليه فكان السالم من التلف من الاسبلة ونحوها مستعملا فى غير وجهه تحت أيدى غير مستحقيه فانتخب لها من طرف الاوقاف مأمورون من المهندسين الذين تعلموا فى المدارس وأرسلوا الى الاقليم للنظر فى أمر الاوقاف وضبطها ومعرفة ريعها وما يلزم لها من العمارات وتحصيل ايراداتها وملاحظة مصروفاتها وجعل المندوبون للوجه البحرى تابعين فى ادارتهم لمأمورية طندتا والمعينون فى الوجه القبلى يخاطبون من الديوان فضبطوها وحرروا جداولها وفعل بها ماهو الاصلح لها فانتظم سيرها ونمى ريعها ثم ان الذى كان متبعا فى العمائر بالمدن الكبيرة كالقاهرة والاسكندرية اجراءها على طرف الديوان وكان لها معمارية وشغالة وعربات ونحو ذلك بمرتبات جسيمة شهرية ومصاريف كثيرة تزيد عن قيمة مايحصل فيها

من الانشاء والعمارة فضلا عن عدم الاتقان وكان يحصل من القائمين بامرها الاهمال والتفريط فيها وكان مايجرى تعميره فى السنة مع عدم اتقانه وكثرة مايصرف عليه قليلا بالنسبة للمحتاج للعمارة وكان الديوان لايتمكن من الحسابات السنوية فبقيت عمارات كثيرة لم ينته الامر فيها ولا فى حساباتها عدة سنين طويلة وكان الذى يعمر منها مع خفة بنائه ورداءة مونته يحوّل من أوضاعه الاصلية الحسنة الى أوضاع سيئة فكنت ترى الدور المتسعة والمنازل الكبيرة حوّلت الى حيشان وربوع يسكنها الكثير من الناس بحيث تحمل فوق طاقتها لزعم ولاتها أن فى ذلك تكثيرا لريع الوقف مع أنهم كانوا مايورثونها الى التخريب واضاعة مابها من نحو الاخشاب وولاتها غافلون لايعرفون الا قبض الاجرة فكان مايتلف سنويا من عقارات الاوقاف أكثر مما كان يعمر باضعاف وهذا ضرر بين فحصل الالتفات الى ذلك وعملت الطرق الموجبة لعمارة الاوقاف وكثرة ريعها وقلة مصرفها على الديوان فجعل فى أثمان القاهرة مأمورون من المهندسين وكتبة ومعاونون وصار الجباة تابعين للمأمورين وشدد عليهم فى الالتفات الى مانيط بهم بحيث أن من فرّط فى أمر يجرى عليه مايستحقه ففتحوا أعينهم ونصحوا فى سيرهم خوفا على أنفسهم فانصلح كثير من الاوقاف وحسنت أحوالها ثم من أنفع الاعمال فى الاوقاف ماأجرى فيها من ابطال جعل ادارة عمائرها على طرف الديوان وصارت تعطى بالمقاولة للمقاولين بعض النظر فيها من مأمورى الاثمان وباشمهندس الديوان وعمل رسوماتها اللازمة وتقدير نفقاتها الموافقة وجعل لذلك لوائح واستمارات نشرت بينهم جعلت قدوة لهم فى الاعمال ثم قسمت أراضى الوقف الواسعة الخربة كالتى فى جهة السيدة زينب وخلافها على الراغبين يبنون فيها منازل وحوانيت وغير ذلك بحكر يقرر عليهم يدفعونه كل سنة للاوقاف وقرر فى الاستمارة أن الآخذ بالحكر يدفع لخزينة الاوقاف حكر عشر سنين تبرعا منه بحيث لايحسبها فى

المستقبل

المستقبل ثم يدفع الحكر سنويا فأنشئ من ذلك مساكن كثيرا كانت مطرحا للزبل والعفونات والاقذار فبعد أن كانت تجلب المضار للناس صارت نافعة تجلب ريعا كثيرا للوقف وتبدلت سيآتها حسنات واستعين بذلك على التنظيم الجارى فى المدن بالاوامر الخديوية لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها وتجديد مايلزم تجديده منها لتكون شوارع المدينة ومبانيها كافية صالحة لاحوالها الراهنة من اتساع دائرة التجارة والثروة التى اكتسبها القطر اذبذلك كثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على حالها من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها اذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصب والعطب والخطر والضرر وصدرت الاوامر الخديوية لديوان الاشغال ونحن به بالنظر فى ذلك وان يعمل له قانون يأتى على المرام وكان قبل ذلك رسم القاهرة محولا على فرقة من المهندسين تحت رياسة المرحوم محمود باشا الفلكى فرسموها على ما كانت عليه و بناء على هذا الرسم كتبت الاشارة فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن مثل شارع محمد على وميدانه وشوارع الازبكية وميدانها وما بعابدين من الشوارع ونحوها وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها وجرى العمل على ذلك فظهرت كل هذه المبانى الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالاشجار الخضرة النضرة المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة الى قرب باب الفتوح ثم تبرع الخديوى اسماعيل باشا على الراغبين بمواضع كثيرة فانشأوا بها المبانى المشيدة والبساتين العديدة وناهيك بقصور الاسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها وأحاسن رونقها ونضرتها وقد كانت أراضيها بين خلوات متسعة وتلال مرتفعة وبرك منخفضة وغابات معترضة ولم يكن بها صالح

للزرع ومأهول بالناس الا القليل فانعم بها الخديوى بلا مقابل رغبة فى العمارة والنظافة وحسن الهيئة فكم زال بذلك عفونات وقاذورات ومشاق وصعوبات وزاد فى بهجة المدينة وا كتسابها نورا على نور ما أحدثته شركة من الافرنج باذن الخديوى من نشر غاز التنوير بها فى سائر شوارعها وضواحيها حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليها بايامها ثم لاجل زيادة الأمن والتسهيل على الخاص والعام صدر أمره بعمل القناطر الحديد المعروفة بالكوبرى بين قصر النيل والجزيرة على هذا الوجه البديع وعملت السكك المنتظمة فى بر الجزيرة وحفت بالاشجار وفرشت بالاحجار الدقيقة المختلطة بالرمل لمنع الاتربة وتسهيل المرور الى العمائر والسرايات والبساتين المنشأة هنالك التى تجل عن الوصف كما فعل ذلك فى جميع الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها بشركة من الافرنج أيضا بعمل وابور الماء الذى عم جميع جهات المدينة حتى تمتعت الاهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقة وكل ذلك غير الاعمال الجسيمة التى أجريت فى جهات القطر مثل ماتجدد بالاسكندرية وما تجدد بالسويس من عمل المينا والحوض والمحافظة وشركة الماء وما رسم فى المديريات من عمل الدواوين والجسور والقناطر والترع التى من أعظمها ترعة الابراهيمية وترعة الاسماعيلية التى حفرت بالمقاولة فهذه الاعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أوامرها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك لضرورة تعلقها بديوان الاشغال فكنت فى مدة احالة هذه الدواوين علىّ مشغولا بالمصالح الاميرية وتنفيذ الاغراض الخديوية ليلا ونهارا حتى لاأرى وقتا ألتفت فيه لاحوالى الخاصة بى ولا أدخل بيتى الا ليلا بل وكنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار لاسيما وأعمال القنال المالح كانت قد تمت وكان الخديوى قد صمم لتمامها على عمل مهرجان ودعى لذلك كثيرا من ملوك أوربا وسلاطينها وعظمائها وهذه الحالة تستدعى استعداد السكك الحديد وعرباتها وتهيئة المدينة لدخولهم فكنت

مع

مع النظر فى أحوال تلك الدواوين مشغول الفكر دائم السفر فى مصالح
هؤلاء المدعوين الى ان انقضى جميع ذلك على أحسن حال وأحسن الينا من
طرف الخديوى بالنيشان المجيدى من الرتبة الاولى وأهدى الينا من طرف
قرال النمسا نيشان (غرانقوردون) ومن طرف قرال فرنسا نشان (كاندور)
ومن دولة البروسيا نيشان (غرانقوردون) وغير ذلك من النياشين وقد بقيت
تلك المصالح تحت يدى الى رمضان سنة ثمان وثمانين ثم انفصلت عن ديوان
السكة ثم عن المدارس والاشغال بعد أيام قلائل ثم عن الاوقاف بعد مضى
قليل من شوال من تلك السنة وكانت أسباب الانفصال أن ناظر المالية اذ
ذاك وهو المرحوم اسمعيل باشا صديق كان قد رغب أن يضم ايراد السكة
الحديدية الى المالية وحصل الكلام بيننا فى ذلك فقلت له لامانع وانما يكون
الصرف على السكة الحديدية تابعا للمالية حينئذ ولا أكون مسؤلا الا بمجرد
ادارتها بشرط أن يصدر أمر الخديوى بذلك حتى لايعود على سؤال فيما عساه
أن يحصل من الضرر فلم يوافق ذلك أغراضه ورمى فى بما رمى فترتب عليه
ماترتب لكنى لم أقم فى بيتى الا نحو شهرين ثم صدرت الاوامر الخديوية فى
يوم عيد الاضحى بجعلى ناظرا على ديوان المكاتب الاهلية وأمرت بتنظيم
ديوانها وعمل رسومات لتجديد مكاتب فى مدن الارياف وبلادها كل على حسبه
وما يناسبه لعلم الخديوى أن مكاتب الارياف غير مستوفية لدواعى الصحة ولا
لشروط النجاح فى التعليم فرسمت ذلك وألحقت به تقريرا لبيان ما يلزم اتباعه
فى جميع المكاتب بحسب الاهمية وكان الغرض عمل أنموذج فى كل جهة ليجرى
البناء على مثله لكن عرضت عوارض أخرت ذلك وفى شهر ربيع الاول سنة
تسع وثمانين أحيل على نظر الاوقاف ثانيا وبعد قليل أحيل على نظر ديوان
الاشغال فلم يمض الا يسير وتحولت نظارة هذه الدواوين على نجل الخديوى
اسمعيل باشا دولتلو حسين كامل باشا فبقيت بمعيته بوظيفة مستشار وفى جمادى

الآخرة سنة تسعين انفصل ديوان الاشغال بنفسه تحت رياسة المشار اليه وجعلت وكيله وفى شهر شعبان من هذه السنة جعلت عضوا فى المجلس الخصوصى وبعد قليل انفصلت عن الخصوصى بسبب ماألقاه اليه الواشون كاسمعيل باشا صديق وأضرا به من أن كتابنا نخبة الفكر الذى أمرنى بتأليفه فيما يتعلق بامر النيل مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها فاقت فى بيتى مع جريان الماهية علىّ من المالية ثم فى شهر صفر سنة احدى وتسعين جعلت رئيس أشغال الهندسة بديوان الاشغال مذ كان هذا الديوان ملحقا بديوان الجهادية تحت نظارة دولتلو حسين باشا المشار اليه ولما انفصل ديوان الاشغال من ديوان الجهادية ألحق بديوان الداخلية تحت نظارة نجله الاكرم الاكبر الجناب التوفيق الخديوى الاخر وكان اذ ذاك ولىّ عهد الحكومة الخديوية المصرية وفى سنة اثنتين وتسعين جعلت مستشارا بعيته فى ديوان الاشغال وفى شهر ذى القعدة من تلك السنة انفصل ديوان الاشغال بنفسه تحت نظارة دولتلو ابراهيم باشا نجل المرحوم أحمد باشا فبقيت بعيته مستشارا بهذا الديوان وفى بكرة يوم الاضحى من سنة ثلاث وتسعين غدوت لملاقاة الخديوى اسمعيل باشا وتهنئته بالعيد الجديد على حسب العادة وكان بسراى عابدين وقد اجتمعت هنالك جميع الامراء والاعيان والمشايخ وأرباب التشريفات لتهنئته وتهنئة أنجاله على حسب العادة فقابلناه أثر صلاة العيد وهنأناه فاكرمنى اكراما زائدا وأنعم علىّ بنيشان مجيدى (غرانقوردون) وبقيت على هذا الحال الى أن ظهر فى سنة ١٨٧٦ ميلادية قصور الحكومة عن أداء ماعليها لكثرة ماأصدرته من البونات وما أثقل كاهلها من الديون ذات الارباح الكثيرة حتى أدى ذلك الى العجز على أغلب أملاكها والى تداخل الدول الاجنبية فى أمورها وآل الامر الى تعيين لجنة من معتمدى الاجانب ذوى خبرة للنظر فى المالية وفروعها وجعل فى هذه اللجنة دولتلو

رياض

رياض باشا نائبا من طرف الحكومة المصرية فكان هو الذى عليه المعول فى معرفة الحقائق وتم الامر بتقرير هيئة للحكومة على أسلوب جديد فترتبت فى سنة ١٨٧٧ ميلادية هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا فكنت من رجالها على ديوانى الاوقاف والمعارف وصدر الدكريتو من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضا عن الانفراد المتخذ الآن طريقا فى الحكومة المصرية أن تكون لهذه الهيئة ادارة عامة على المصالح بمعنى أنى أروم القيام بالامر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظار والاشتراك معهم فى تسيير المصالح وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفيلا بالآخر يتفاوضون فى جميع المهمات ويتداولون الرأى فيها ويقررون ماتستقر عليه أغلبية الآراء وتصدر قرارات المجلس على حسب الاغلبية وأقررها بالتصديق عليها ثم ينفذها النظار فجرى العمل بذلك وأخذت هيئة النظارة فى ادارة المصالح على هذا النمط وشرعت فى تسديد الديون من ايراد البلاد ومن قرضة استدانتها من بنك روتشلد بلوندره وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الانجليزى ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم عنها للحكومة وكان مبلغ ايرادها سنويا أربعمائة ألف وستة وعشرون ألف جنيه انجليزى وجعلت لادارة تلك الاملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين وفى تلك المدة صرفت مافى وسعى فى توسيع دائرة المعارف فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنندا ومدرسة المنصورة وفى تكثير عدد المكاتب وترتيب المدرسين وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب واعتنيت بامر الاوقاف ونشرت المعاونين للكشف عن الاماكن وبيان المتخرب منها والعامر وما يناسب استبداله وتجديده على حسب ما يعود بالمصلحة على الاوقاف وبيان الاصقاع ونحو ذلك وكان أكثر مكاتبها متعطلا ما بين دارس وفاقد ثمرة التعليم لعدم لياقة المعلمين للتعليم فوجهت الهمة نحوها حتى

ظهرت بالتدريج النتيجة للتعلمين وأهليهم ولما تمت دفاتر الاماكن والمكاتب التي بالمدن والقرى أخذت في انجاز مقتضياتها على حسب نصوص وقفياتها مراعيا في ذلك مافيه المصلحة وما يقره المفتي وكانت هيئة النظارة مساعدة للمعارف والاشغال العمومية وكل مافيه التقدم وقد اهتمت بتنظيم أمر الايراد والمصرف وأبطلت من المغارم مايبلغ نحو مليونين من الجنيهات ولكن ألجأتها ضرورة الاقتصاد الى الغاء بعض المصالح وقطع المرتبات الجارية على غير قانون كالانعامات ومرتبات الاشراقات وتنزيل عدد الجيش العسكري الى القدر الكافي لاحتياجات البلاد وبذلك أحيل كثير من ضباط العسكرية على المعاش فاساءت هذه الاجراآت ونحوها كثيرا من الناس سيما ضباط العسكر وحصل اللغط بذم الهيئة والتنديد على أعمالها وكثر القال والقيل حتى تجمع كثير من ضباط العسكر حول المالية يطلبون متأخراتهم وجرت منهم أمور جاوزت حد الادب فتشوشت الافكار داخل القطر وخارجه واضطربت الاحوال ولم يزل الاضطراب يتزايد حتى جعل وسيلة للقول بعدم موافقة هيئة النظارة لحال البلد وانبنى على ذلك سقوطها وفي ١٨ من ابريل سنة ١٨٧٩ ميلادية صدر الامر العالي لشريف باشا بترتيب هيئة نظارة تحت رياسته تنتخب من الوطنيين فرتبها وعملت لائحة لسداد الدين عرفت باللائحة الوطنية جعلت أكثره فائدة لاصحاب الدين استمالة لهم فلم تنجح المقاصد وكتب القناصل بذلك الى دولهم فلم يرتضوه وانتهى الحال بسقوط تلك النظارة وفي ٢٧ يوليه سنة ١٨٧٩ صدر الامر السلطاني بانفصال الخديوي اسمعيل باشا عن سند الحكومة المصرية وان يتولاها أكبر أنجاله الفخام وولي عهد الحكومة المصرية يومئذ الخديوي المعظم المجل أفندينا محمد باشا توفيق الاول فاخذ رحمه الله بزمام الاحكام وقام بالامر أتم القيام وفي سنة ١٨٨٠ صدر أمره الكريم الى سعادة دولتلو رياض باشا بتشكيل نظارة تحت

رياسته

رياسته مقلدا هو نظارة الداخلية فكنت من رجال تلك الهيئة مقلدا بنظارة الاشغال العمومية وكان اذ ذاك فى الحكومة اثنان من طرفى دولتى فرنسا والانجليز يراقبان أمور المالية وهما موسيو دوبلنيير الفرنساوى والموسيو نارنج الانجليزى فجعل لهما الحق فى حضور جلسات هيئة النظارة وشرعت النظارة فى ادارة المصالح وسن القوانين العادلة وجعل الاموال الاميرية على أقساط مقررة وأوسعت فى معاش المستخدمين وفى عددهم بما يلائم كل مصلحة واهتمت بكل مافيه التقدم كامر التربية ومصالح الاشغال حتى بلغت ميزانية ديوان المعارف ضعف ما كانت عليه وبعد ان كان ديوان الاشغال قلما يضاف تارة الى ديوان الداخلية وتارة الى غيره وكانت جميع الاعمال ماعدا المقايسات يجريها المفتشون والمديرون ونحوهم فيعملون برجال العونة مبانى وترعا ومساقى على أغراضهم الخاصة بلا فائدة عامة حتى كثرت الخلجان وضاعت بسببها مزارع كثيرة وضاعت المصارف التى عليها مدار اصلاح الارض فبعد ذلك صار ديوانا مستقلا ملحوظا بعين العناية وبلغت ميزانيته ستمائة ألف جنيه حيث انه الاساس الاعظم للثروة فحينئذ تمكنت من اجراء مايلزم اجراؤه لتحصيل المنافع العمومية وقسمت أعمال الديوان ثلاثة أقسام قسم للتحريرات والمحاسبة وقسم لعمل التصميمات لما يلزم تجديده من الاعمال ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات والموازين وقسم يختص باعمال القاهرة ونحوها من مدن القطر وذلك غير الملحقات مثل قلم الزراعة وقلم المصلح ومصلحة الانجرارية وقلم القضاء وقسمت مصلحة الهندسة خمسة أقسام لكل قسم مفتش وجعلت جميع أعمال الهندسة تحت ادارة وكيل الديوان وانتشر المهندسون فى جميع انحاء القطر لمعاينة مابه من مبان وترع وقناطر وغيرها فحرروا الدفاتر بالموجود من ذلك ومايلزم تجديده أو رمه فى كل مديرية وأخذ الديوان فى اجراء الاعمال مقدما المهم فالاهم ولموافقة حال المالية والاهالى

قسمت الاعمال على عدة سنين فحصل رم كثير من القناطر والبرابخ وتقويتها بوضع الدبش أمامها فى الحفر التى يخلفها هدير الماء وأحضرت الاخشاب اللازمة لتقفيل القناطر عند الاقتضاء وجددت جملة من المبانى والقناطر النافعة منها بمديرية الشرقية قنطرة الزوامل على الترعة الاسماعيلية وقنطرة الشرقاوية على النيل والبولاقية وقنطرة أشمون وقنطرة كفر الحمام وهويسات الاسماعيلية ورصيف السويس وبلغ مصرف ذلك نحو اثنين وثلاثين ألف جنيه غير برابخ وقناطر أنشئ بعضها على ذمة الحكومة وبعضها على ذمة المنتفعين وأجريت عمارات فى المحافظات والمديريات صرف عليها نحو خمسين ألف جنيه وصار الابتداء فى بناء سلخانة القاهرة واسبتالية قصر العينى ومدرسة الطب وصارت المعاقدة مع مصلحة توزيع المياه بالقاهرة على انشاء وابور يوصل الماء الى مدينة حلوان وكانت مفتقرة الى ذلك ونظمت الحمامات التى بها ورتبت لها المهمات اللازمة وجعل لها حكيم ومأمور وزيد فى القاهرة عدد فوانيس الغاز وصار تنظيم بعض شوارعها وفرشها بالزلط وعملت عدة مجارير فى الشوارع المهمة لاخذ مياه الامطار وأوصل الماء الى طريق الجيزة والجزيرة للرش وسقى الاشجار ونظم طريق شبرى وبنى بآخرها رصيف طوله نحو مائتين وخمسين مترا وجدد بالقاهرة ميادين وفساق وأنشئت جنينة الانتيكخانة ببولاق وبنى بالاسكندرية سراى البوستة وجعلت التصرف فى أمر الرى للمهندسين خاصة فجعلوا لفتح القناطر وسدها أوقاتا بحسب الحاجة العمومية ومنع ما كان يحصل من الفتح والسد على حسب الاغراض الخاصة ولم تزل الرغبة فى تركيب الوابورات على البحار والترع آخذة فى الزيادة وكثرت الوابورات جدا حتى بلغ عدد المركب منها فى الجهات البحرية ألفين وواحدا وثمانين وابورا قوتها أربعة وعشرون ألفا وخمسمائة وواحد وثمانون حصانا بخاريا منها الثابت على النيل مائة وخمسة وأربعون فى قوة أربعة آلاف وسبعمائة وواحد وثمانين

حصانا

حصانا وعلى الخلجان مائتان وواحد فى قوة ثلاثة آلاف وثمانمائة وتسعة وستين حصانا وغير الثابت على النيل مائتان وستة وعشرون وابورا فى قوة ألفين ومائتين وسبعة وعلى الخلجان ألف وخمسمائة وابور وتسعة فى قوة ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وثمانية وتسعين حصانا ولم تنته الرغبة الى هذا الحد بل كثر طلب الرخص لتركيب وابورات مستجدة والى غاية سنة ٨٠ لم يكن قانون لتركيب تلك الوابورات وترتب على كثرتها حرمان كثير من الاهالى من الانتفاع بمياه تلك الترع سيما مع استحواذ أصحاب النقود على ترع لوابوراتهم اما لسقى زروعهم أو لبيع الماء لزرع غيرهم وكثر التشكى من ذلك فصار البحث فى هذه المسئلة لرفع تلك المظالم وعملت لائحة بخصوص الآلات الرافعة للماء امتنع بها الضرر وهى المستعملة الى الآن وبها انتظم أمر الرى وبلغ مقدار الماء بمديرية القليوبية فى أعظم التحاريق نحو ثمانمائة ألف متر مكعب فى اليوم والليلة منها من الترع خاصة بعد توسعة الباسوسية ستمائة ألف متر وفى مديرية الشرقية ثلاثة ملايين ونصف وفى الدقهلية نحو أربعة ملايين وفى الغربية والمنوفية نحو ثمانية ملايين كل ذلك بعد تقفيل قناطر بحر الغرب وتحويل الماء الى بحر الشرق وقد صار الاهتمام بتطهير الترع والخلجان بطريقة لاتمنع من سقى المزروعات بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير وجعل ابتداؤه من آخر كل ترعة بعد تقسيمها وحول كثير من ترع الوجه البحرى من نيلى الى صيفى فتمكنت بلادها من الزراعة الصيفية وعملت فى الاقاليم القبلية ترع وجسور لرى الجزائر وأعالى الحيضان وصار الاهتمام الزائد بأمر بلاد الفيوم وكان أكثرها قد تعطلت زراعتها لان احداث الجفالك هنالك غير نظام الرى القديم وتبدل أكثر النصب القديمة المعدة لتقسيم الماء على البلاد فاحييت النصب القديمة وعدلت الترع والمساقى ووجه اليها مايلزم من ماء الابراهيمية فزرع هنالك نحو خمسة عشر ألف فدان صيفية وصارت

أرضها رواتب وقل بها استعمال السواقى ولما كانت الابراهيمية قد قطعت ترع بلاد المنيا وحرمت أراضيها من الطمى الذى عليه مدار الخصوبة صار الاعتناء بهذه المسألة واستعملت الابراهيمية فى ملء الحيضان وتكملتها مع مايرد اليها من اليوسفى فحييت أرضها وأخصبت وزرع الاهالى بها نحو ثلاثة آلاف فدان من القصب الحلو بعد أن كان هذاالصنف والابراهيمية مختصين بالدائرة السنية وزادت زراعة الذرة أضعاف ما كانت عليه وعملت فى المديريات قناطر وبرابخ كثيرة مابين تجديد ورم و بلغت أعمال الحفر فى تلك السنة مابين تجديد وتطهير اثنين وثلاثين مليونا ونصف مليون متر مكعب فى مائة وثلاثة وخمسين يوما وخص الشخص فى اليوم متر وتسعة أعشار متر وهو أكبر مما كان يعمل فى اليوم قبل ذلك بسبب ان الاعمال مشت على قانون منتظم مع أن الانفار الذين خصصوا على البلاد كانوا أقل من المخصص عليها فى السابق نحو عشرة آلاف نفس وبلغ ماعمل فى السنة نصف ماقرر عمله فيها مع كثرة ماقرر بخلاف ما كان يعمل قبل فانه كان لايتجاوز خمسى ما كان يقرر عمله فى السنة وكان المؤمل زيادة انتظام العمل فى المستقبل ومما أوجب تخفيف العمل لائحة العونة التى ندب لها جملة من أعيان البلاد والحكام وهى المتبعة الى الآن من مقتضاها جعل العونة على كل من له قدرة على العمل مع الترخيص فى التخلص منها بدفع البدل فتخلص من العمل ثمانية وخمسون ألف نفس وتحصل منها فى السنة نحو ستة وثلاثين ألف جنيه وكان كل سنة يزيد وتحسنت حالة الرى وكل مايتحصل يصرف فى أعمال لازمة وكان تطهير رياح البحيرة سابقا يستعمل فيه نحو عشرين ألف نفس تجمع من سائر مديريات الوجه البحرى لقلة أنفار مديرية البحيرة ومع ما فى ذلك من الظلم والاجحاف كان لايتحصل منه الا على ثمانمائة ألف متر مكعب من الماء فى اليوم والليلة وكان المتحصل من وابورات العطف مثل ذلك بمصاريف باهظة والمتحصل من الجهتين كان

غير

غير كاف لزرع نصف مايلزم زرعه بهذه المديرية الواسعة مع أن المنصرف على ذلك سنويا نحو اثنين وعشرين ألف جنيه فلما رأينا ماعليه زراعة المديرية من الانحطاط والتأخر قدمنا لمجلس النظار مشروعا عن تركيب وابورات بفم الخطاطبة وتحسين وابورات المحمودية لتخليص المديرية من هذا الضرر وانه وجد لهذا المشروع من يجريه وهو الموسيو داستون المهندس وشركاؤه فبعد المذاكرة صار قبول هذا المشروع فصار التعاقد مع المهندس المذكور وشركائه على تجديد وابورات على فم ترعة الخطاطبة يتحصل منها يوميا مليون ونصف مليون متر مكعب من الماء وأن يزاد على وابورات العطف مايلزم زيادته وما يلزم استعداده من القديم ليتحصل على ايراد مليون ونصف آخر وعملت الشروط اللازمة ومن ضمنها اتمام العمل فى سنة واحدة وأن لايزيد المنصرف فى السنة عن أربعة وعشرين ألفا وسبعمائة وسبعة وثمانين جنيها وقدر فى العطف ثمن المليون أربعة وعشرون جنيها وفى ترعة الخطاطبة خمسة وعشرون ونصفا فقامت تلك الشركة بذلك وبطلت السخرة وقل الاحتياج الى التطهير وكانت الحكومة سابقا تكلف أرطة عسكرية باحضار الدبش اللازم للمحافظة على جسور النيل فرأى ديوان الاشغال كثرة مايصرف على ذلك فابطل تلك الطريق وجعل توريد الدبش الكافى فى عهدة جماعة بشروط عقدها معهم وعمل للتسليم والتسلم استمارة وعين لهذه المصلحة مأمورين من المهندسين فسارت سيرا حسنا وبلغ مقدار ماأحضر الى الجهات فى سنة ٨٠ مليونا وأربعمائة قنطار بمبلغ ثلثمائة وخمسة عشر ألف قرش باعتبار ثمن القنطار تسعة أنصاف فضة مع أن الذى استخرجته الأرطة وغيرها فى سنة ٧٩ كان مائة واثنين وخمسين ألفا وأربعمائة قنطار بمبلغ ثلثمائة وأربعة وخمسين ألفا وثمانمائة وخمسة عشر قرشا فانظر الى الوفر البين مع التسهيل على الناس فضلا عن الحصول على دبش عظيم جيد وهكذا كانت جميع الاعمال قائمة على

قدم السداد وكانت هيئة النظارة سائرة فى الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوىّ والضعيف والرفيع والوضيع فاستوجب ذلك اثارة الحقد فى صدور أرباب الاغراض فتقوّلوا على هذه الهيئة وطعنوا فيها واختلط كثير منهم بضباط العسكرية فأوغروا صدورهم وألقوا فى آذانهم انهم الاحق بتعديل القوانين والتصرف فى الحكومة حيث انهم أهل الوطن وأصحاب القوة وحسنوا لهم ماصنع بعضهم من الثورة السابقة التى لم يعاقبوا عليها فتعصبوا وتمكن منهم الغرور وكان رئيسهم أحمد عرابى أحد أمراء الالايات وقتئذ فاستمال سائرهم وعاقدهم على مضادة الحكومة وتقدم من رؤسائهم لمجلس النظار عرضحال يطلبون فيه تغيير ناظر الجهادية عثمان باشا رفقى وتشكيل مجلس نواب وغير ذلك مما يخرج عن حدود وظائفهم فانعقد لذلك مجلس النظار تحت رياسة المرحوم الخديوى توفيق وانحط الرأى على عقد مجلس من الاهلين وبعض أمراء العسكرية للنظر فى أمرهم والحكم فيهم بما تقتضيه قوانين الجهادية وتعهد ناظر الجهادية بان لاينجم عن ذلك خطر ولا ضرر فانعقد ذلك المجلس بقصر النيل وجلبوا اليه لمحاكمتهم فقام جمع من الضباط والعساكر وهجموا على قصر النيل وأهانوا من بالمجلس وأخذوا العرابى ومن معه بالقوة على حسب عهد كان بينهم فكان ذلك أول التظاهر بالعصيان والخروج عن طاعة الحكومة وشاعت هذه النازلة حتى وصل خبرها الى البلاد الاجنبية فجمع الخديوى المرحوم توفيق النظار وأعيان الامراء وتفاوضوا فى اطفاء هذه الفتنة فتقرر تغيير ناظر الجهادية واجابة العسكر الى مطلوبهم والاغضاء عما حصل منهم لما تبين من عدم وجود قوة تحت يد الحكومة ترد جماحهم فلم ينقطع الشر بذلك بل تمادوا على العصيان وحملهم الخوف على أنفسهم على شدة النفور وعدم قبول النصيحة وطمعوا فى أن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى الحكومة وتأكد التحالف بينهم حتى بلغ بهم الامر الى أن هجموا على سراى عابدين

ووجهوا اليها المدافع وطلبوا سقوط هيئة النظارة وترتيب مجلس النواب وزيادة عدد الجند الى ثمانية عشر ألف عسكرى فحضر القناصل وأوصلوا الامر الى دولهم بواسطة التلغراف وبعد المخابرات أجيب العسكر الى مطلوبهم وغيرت هيئة النظارة وصدر الامر الخديوى الى المرحوم شريف باشا بتشكيل هيئة تحت رياسته فشكلها وعقد مجلس النواب فشرع رجال المجلس فى تقرير لائحته الاساسية وبعد قليل طلبوا أن يكون لهم الحق فى نظر ميزانية الحكومة بشرط عدم الخروج عن المعاهدات الدولية وقانون التصفية فلم يجبهم المرحوم شريف باشا الى ذلك فأصروا على الطلب وظاهرهم العسكر فاستعفى المرحوم شريف باشا وتغيرت هيئة النظارة وتشكلت هيئة جديدة تحت رياسة محمود باشا البارودى وجعل من رجالها أحمد عرابى على الجهادية والبحرية فلم تخمد بذلك نيران الفتن بل اشتعلت وانضم الى الطائفة العرابية الخوارج كثير من أهل البلاد وأعيانها ما بين راغب وراهب وفى أثناء ذلك أتى الى مينا الاسكندريه مراكب حربية انجليزية وفرنساوية وغيرها لتقرير الأمن واطفاء الفتنة وحضر الى مصر درويش باشا مندوبا من طرف الدولة العلية لتسكين الفتنة فلم تحصل النتيجة وقام الخديوى الى الاسكندرية ولحقه درويش باشا وتداولت المخاطبات بين الدول وبينها وبين الباب العالى وتقرر عقد لجنة بالاستانة العلية للنظر فى هذه الحادثة وفى أثناء ذلك أطلقت على الإسكندرية المدافع من المراكب الانجليزية وقاومت العساكر المصرية سويعات ثم انهزموا وخرجوا من الاسكندرية بعد اشعالهم النار فيها وحثوا أهلها على الخروج فخرجوا هائمين على وجوههم كيوم المحشر وتفرقوا فى البلاد وحصل لهم من السلب والنهب وهتك الحريم ما يكل القلم عن حصره ودخل الانجليز الثغر وتحصن العرابى ومن معه بطوابى عملوها من تراب بكفر الدوار وسدوا المحمودية ليمنعوا وصول الماء الى الاسكندرية وكثر المدون لهم بالانفس والاموال

مابين راغب و راهب وعم الخوف كل من لم يتشيع لهـم وامتلأت الطوبخانة عمن تظاهر بمخالفتهـم وفى خلال تلك الاحوال كان قد تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بامر العرابى للنظر فى المصالح وكثيرا ماعقدوا مجالس للنظر فى مسائل تعرض من طرف العرابى وحزبه وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ندب اليه كثير من الامراء والعلماء والروحانيين وأعيان البلد وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح فكنت ممن ندب اليه فعينت سفيرا الى الاسكندرية مع جماعة من الوطنيين فلما وصلنا الى الاسكندرية تكلمت فى عمل طريقـة لما يوجب خمود نيران هـذه الفتنة فاجاب الجناب الخديوى وصارت المكالمة فى هـذا الشأن مـع رؤساء الانجليز لكن لم ينجح ذلك لمزيد نفرة العسكرية ولما خاف العرابى أن يتحول الانجليز الى جهة برزخ السويس تحول باكثر عسكره الى التل الكبير بالشرقية فتحصنوا هناك ووقع بينهم وبين الانجليز مناوشات انتهت بانهزام عرابى وقومه وسار الانجليز الى القاهرة وأسلم العرابى نفسه وقبض على من كان معه ومن اتهم بالتشيع له وسجن الجميع فى أضيق السجون وبعد ان حضر الخديوى الى القاهرة وهدأت الامور عينت لجنـة للتحقيق وأخرى للحكم على كل بقـدر جنايتـه وتم الامر بعقوبة البعض والعـفو عن البعض وتبرئة البعض ولله عاقبـة الامور وأثر انهـزام العرابيين تشكلت نظارة تحت رياسة المرحوم شريف باشا فى سنة ١٨٨٣ ميلادية فكنت من أعضائها على ديوان الاشغال العمومية فوجهت النظر نحو اتمام ماتقرر فى المدة السابقة وفى هـذا العام أعنى سـنة ١٨٨٣ ميلادية نلت من لدن الحضرة الخديوية التوفيقية رتبة (روملى بيكاربيك) وفيها أيضا كانت وابورات الخطاطبة غير كافية لاحتياجات أراضى المديرية فحصـل تنقيح الشروط التى كانت قد عملت مع مسيو داستون على تجديد وابورات بفم ترعة الخطاطبة ولزيادة مقدار الماء الى نحو خمسـة ملايين متر مكعب بعد أن كان

الوارد

الوارد ثلاثة ملايين واتخذ الديوان طريق المقاولة فى المبانى على الاطلاق ورتب لمراقبة ذلك من يلزم من المهندسين لئلا تخرج الاعمال عما فى التعهدات وجعل لذلك استمارة يجرى العمل عليها ثم أخذ فى نقل جسور الترعة الاصلية كى لانهال الاتربة فيها وليتمكن من تكرار العمل ولكثرة العمل صار تقسيمه على سنين وجعل بعضه يعمل بالمقاولات على وجه التجربة والبعض يعمل بانفار العونة ثم وجهت الهمة نحو مرمة عمارات جميع المديريات وتجديد ما هو لازم ورتبت كراكات بالمحمودية لاستدامة قطاعها وصار مد الترعة الابراهيمية لسقى زرع مديرية بنى سويف وترتيب كراكات بالابراهيمية وبنيت الورشة لترميم الآلات وتجديد ما يلزم ورتب لها مايلزم من الادوات والصناع وصرف على تطهيرها فى هذه السنة نحو سبعة وعشرين ألف جنيه وبلغ ايرادها فى أشد التحاريق نحوا من أربعة ملايين متر مكعب من الماء ومثل ذلك صار فى ترعة الاسماعيلية وصرف عليها نحو أربعة وعشرين ألف جنيه وكان بحر مويس يقل به الماء فى زمن الصيف لكثرة الرمال بفمه وحدوث الجزائر به وأمامه ولا ينفعه التطهير الجارى به كل سنة فرتبت به كراكة بادواتها وعمالها فزالت منه الرمال وكثر الماء فيه وفى فروعه واستقر الحال على استعمال الكراكات فى الابحر الكبيرة كالشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط ورياح المنوفية والغربية وأن يكون ذلك على التدريج وبذلك تخفف التطهيرات الصيفية عن كاهل الاهالى وما يتحصل من البدلية ربما يوازى مايسرف على الكراكات ولوازمها مع كثرة فوائد الكراكات جدا عن عمل الانفار وأجريت فى تلك السنة أعمال متنوعة فيما يخص التطهيرات والمحافظة على كوبرى قصر النيل وسد توفير وأنشئ بالشرقية مدرسة الزقازيق وديوان المديرية وملحقاته وفى القاهرة جرى تبليط شوارع ومرمة أخرى وانشاء مجارير ومرمات مبان وترتيب فوانيس غاز على حسب الحاجة وصار مشترى هراس بخارى وكاسات تجرها

البهائم وتنظيم جنات وميادين وبلغ مصرف أعمال القاهرة فى تلك السنة نحو خمسة وسبعين ألف جنيه وكذا جرت عمائر وأعمال متنوعة بمدينة الاسكندرية وفى الاقاليم البحرية والقبلية ففى مديرية الدقهلية قنطرة ترعة الساحل وكبرى معدنى على ترعة أم سلمة وصار الشروع فى جعل ترعة الايراد فى البحر الصغير مصرفا لاحياء أراضى البحر الصغير وترعة مستجدة بين أطيان الدراكسة وميت سويد وحوشة ببحيرة الطبلية وفى الغربية صار الشروع فى عمل كبرى مدينة المحلة وقنطرة بسيون وحولت ترعة سليم الآخذة من الخضراوية من نيلية الى صيفية وفى المنوفية كملت قناطر النعناعية وحولت ترعة الحمراء من نيلية الى صيفية ونقلت جسور ترعة الساحل وفى البحيرة عملت حوشة جديدة على جزيرة الطيرية وتحويلة لجسر النيل بناحية النجيلة وأخرى وقاية من بنبيت ناحية الاخماس وفى القليوبية نقلت جسور ترعة كوم بتين وعملت مساطيح لترعتى القرطامية وأبى المنجى وفى مديرية بنى سويف بنيت القناطر السبعة فى جسر قشيشة وسحارات تحت بعض الترع لنفوذ المياه الحمراء الى الحيضان وقناطر أخرى فى الجسور للصرف وعملت قنطرة بالحوض السلطانى وفى الفيوم قناطر بحر الغرق وسد فم بحر النزلة القديمة وعملت به تحويلة لايصاله بالبحر الاصلى وفى مديرية المنية عملت قناطر بالحيضان كحوض الطهنشاوى وحوض الجرنوس وكذا عمل فى مديريتى جرجا وقنا والى ذلك الوقت لم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الادارة والقضاء والضبط ونحو ذلك وكان الموجود منها مبنيا بالطوب النىء أو الدبش على غير نظام وكانت الحبوس حواصل مظلمة لايدخلها النور الا قليلا وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالامتعة وداخلها يختنق بمجرد استنشاق هوائها ففطنت الحكومة الخديوية لذلك وصدر الامر بانشائها فعمل ديوان الاشغال التصميمات اللازمة وشرع فى بنائها على التدريج فبدأ بديوانى مديرية الشرقية والمنوفية وكذا

لم يكن بالمديريات اسبتاليات داعيـة الى الصحة بل كان بعضها محل ورشـة ونحوها وأكثرها متهدم والسليم منها كربط البهائم فعملت تصميمات لتلك الاعمال على حسب أهمية كل مديرية بالكبر أو الصغر وتدرجت الاعمال على السـنين فعملت اسبتاليتا المنصورة والغربية فى تلك السنة وكذا الذبح كان فى الفضاء وجاريا على غير قانون ومنافع الحكومة منه قليلة فبنى مذبح المنصورة والغربية وجعلت تلك المبانى أنموذجا لما يبنى فى سائر المديريات وبنيت جملة شون للصلح وقراقولات للعساكر وغير ذلك مما لا يسع المقام شرحه ولنذكر هنا بعض ملخص التقرير الذى عمل اذ ذاك بديوان الاشغال وقدم لمجلس النظار بخصوص الرى واستيفاء أعمال سقى الزراعة الصيفية فى زمن التحاريق وازالة صعوبة أعمال التطهير عن كاهل الاهالى واتساع نطاق الزراعـة والمحصولات فمن أهـم ذلك اتمام مايلزم لعملية ترعتى الرمادى والابراهيمية وترعة أخرى مهـمة فى الاقاليم القبليـة لازالة غوائـل الشراقى الذى يتوقـع حصوله فى بعض السـنين فان مايصرف فى أعمال تلك الترع أو فى ترتيب وابورات لتـكميل رى الحيضان المرتفعة ولو كان كثيرا فى نفسه لكنه قليل جدا فى جنب ماتخسره الاهـالى والحكومة عند حصول الشراقى فقد كانت خسارة الحكومة وحدها سـنة ١٨٧٧ ميلاديه عند ما كان النيل أقل من ١٧ ذراعا وهبط بسرعـة أكثر من مليون جنيه ولا بد أن الاهالى كانوا بمثل ذلك أو أكثر فضـلا عما قاسوه من الضنك والموت وكثيرا مايكون النيل أقل من اللازم فتتكرر الخسائر فمن الضرورى تدارك ذلك باجراء تلك الاعمال للامن على الاموال والانفس ومن ذلك بناء القناطر اللازمة فى جسور الحيضان لتقـل كميـة الرديف السـنوى وتقل أنفار العونة وفى الوجـه البحرى بدلا عن المعالجـة فى القناطر الخيرية وكثرة الصرف عليها مع طول المدة بترتيب وابورات على شاطئ النيل كافيـة نسقى المزروعات وقد صار البحث عما يلزم لكل مديرية من الوجه البحرى فتبين

انه يكفى جميعها فى اليوم والليلة خمسة وعشرون مليون متر مكعب من الماء بما فى ذلك من مليون ونصف لمديرية الجيزة وباعتبار أن الفدان يلزم له عشرون مترا مكعبا كل يوم وان ايراد النيل فى أشد التحاريق هو ثمانية وثلاثون مليونا كل يوم يكون الباقى فى مجراه نحو ثلاثة عشر مليونا ومبلغ الخمسة والعشرين مليونا المذكور موزع على مديريات بحرى بحسب زمامها هكذا لمديريتى القليوبية والشرقية خمسة ملايين منها ثلاثة ملايين وثلث من الوابورات التى توضع على الخليج المصرى والشرقاوية والباسوسية والباقى من النيل بواسطة الاسماعيلية وبحر مويس ولمديرية الدقهلية أربعة ملايين منها ثلاثة من الوابورات التى توضع على ترعة الساحل والبحر الصغير والباقى من النيل بواسطة ترعتى أم سلمة والمنصورية بعد تطهيرهما بالكراكات حسب المطلوب وللمنوفية والغربية عشرة ملايين منها سبعة بالآلات البخارية وهى أربعة طقومة واحد برأس روضة البحرين وآخر خلف القرينين وثالث على ترعتى الساحل والخضراوية والرابع بقرب فم البحر الصعيدى والثلاثة الباقية من النيل بواسطة رياح الوسط ولمديرية البحيرة أربعة ملايين ونصف من الوابورات الراكبة على المحمودية وترعة الخطاطبة خلاف ما يأخذ من الرياح ولمديرية الجيزة مليون ونصف بطقمى آلات أحدهما يوضع على الشاطئ الايسر للنيل لرى أراضى شرق أطفيح والآخر فى رأس المديرية القبلى قرب قنطرة جرزة وتقدم لديوان الاشغال من بعض الشركات المعتبرة طلب بتعهد اجراء تلك الاعمال فبفرض معاملتها كنص شروط الخطاطبة وجعل مدة الالتزام خمسا وثلاثين سنة عملت حسبة فى الديوان فظهر أن مايلزم دفعه كل سنة لتلك الشركة مائتان وسبعة وثمانون ألف جنيه مصرى موزعة على المديريات هكذا على مديرية الجيزة تسعة وثلاثون ألفا وثلثمائة جنيه وعلى القليوبية والشرقية تسعة وخمسون ألفا ومائة جنيه وعلى الدقهلية ثمانية وثلاثون ألفا وستمائة

وخمسون

وخمسون جنيها وعلى المنوفية والغربية مائة ألف وألف وثمانية جنيهات وعلى البحيرة تسعة وأربعون ألفا وباعتبار أن المنزرع صيفيا مليون فدان فقط يخص الفدان سبعة وعشرون قرشاصاغا تقريبا بصرفه تستوفى الزراعة حقها من المياه بسهولة واذا اعتبر التوزيع بالنسبة لعموم الزمام يخص الفدان نحو عشرة قروش وذلك قليل جدا فى جنب ماتحصل عليه البلاد من الفوائد التى منها ان رفع المياه بالآلات الى مستو ثابت يضمن ثبات مقدار الكمية اللازمة للزراعة مهما بلغت درجة انحطاط النيل وذلك من أهم الامور ومنها تنقيص التطهير الصيفى بمقدار مهم جدا ومنها انه بواسطة الآلات تكون الاراضى المرتفعة والمنحطة تنال من الماء بقدر اللازم فقط ومنها انه فضلا عن دوام استيفاء الكميات المقدرة من الماء فمن الممكن زيادة ارتفاع الماء فى الترع أو تنقيصه على حسب الحاجة فيتوفر على الناس ماينفقونه فى سبيل رفع الماء بالسواقى ونحوها ومنها انه بواسطة رفع سطح الماء بحسب الطلب يمكن تحويل جميع الترع النيلية الداخلية الى صيفية بدون اجراء حفر فيها بحيث يتيسر استخدامها للزراعة الصيفية فيتمتع الاهالى بالزراعة الصيفية بعد حرمانهم منها وبالجملة فبجلب المياه الى الترع بواسطة الآلات يصير مقدار تصرفها كافيا كافلا لاحتياجات الاراضى اذ لا توجد أرض الا وريها مرتب على ترع نيلية أو صيفية وقد تكلمنا فى كتابنا نخبة الفكر على ما يتعلق بالقناطر الخيرية بابسط عبارة فليراجع ولم تزل هيئة هذه النظارة قائمة على قدم السداد جادة فيما فيه عمارية البلاد وراحة العباد الى أن حدثت أمور أوجبت استعفاء النظارة وتشكلت نظارة أخرى تحت رياسة دولتلو نوبار باشا وذلك فى أواخر سنة ١٨٨٣ ميلاديه واستمرت الى منتصف شهر يوليه سنة ١٨٨٨ ميلادية توافق سنة ١٣٠٥ عربية ثم استعفى وسقطت النظارة وبتاريخه صدر الامر العالى الخديوى الى الجناب المعظم ذى الدولة مصطفى

باشا رياض بتشكيل نظارة تحت رياسته مقلدا حرسه الله مع ذلك نظارة الداخلية والمالية فجعلت من رجال هذه النظارة مقلدا أيضا نظارة ديوان المعارف وها أنا الآن قائم بهذا الامر على حسب المصالح بقدر الامكان والله المستعان وكنت فى بلدتى مشغولا بزراعة بعض أرض لى هناك كان قد مضى على نحو من ثلاثين سنة لم أتوجه اليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة ومن طول المدة كانت آلت الى التلف وصار أغلبها سباخا فلما طلبت لهذه الخدمة تركتها وأخذت فى تأدية مافرض على قياما بحق وطنى أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه نفع العباد وأن يختم لنا وللمسلمين بالخير انه سميع قريب مجيب الدعوات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

هذا كلامه رحمه الله عن نفسه

ونقول تكملة لترجمته أنه تغمده الله بالرحمة بقى فى هذه النظارة أكثر من سنتين يشتغل بما هو شأنه من اعلاء المعارف وتنمية التربية وتعميمها ففتحت فى مدته هذه المدارس الاهلية فى المدن والاقاليم ورأى رحمه الله أن لابد من العناية بامر التربية الابتدائية فاستصدر أمرا عاليا بجعل الكتاتيب تحت رعاية ونظر نظارة المعارف وشكل لترتيبها قومسيونا اشتغل بنظامها وبوضع لائحة للتعليم فيها واستحدث فرقة فى مدرسة دار العلوم تتعلم فيها ما يلزم للتعليم فى هذه الكتاتيب وبالفعل أدخل الاصلاح على كثير من الكتاتيب فى مصر وغيرها من كبار المدن ومشى فى هذا السبيل المنير فكان أكبرهمه ومرمى أفكاره تقدمه على سائر الاصلاحات

وبعد ذلك كان القدر ان سقطت هيئة النظارة التى كان فيها وذلك فى ١٢ مايو سنة ١٨٩١ الموافق ٤ شوال سنة ١٣٠٨ وقد جرت العادة لصاحب الترجمة رحمه الله أنه عند اقالته من مثل هذه المناصب يشتغل باكمال التآليف فوجه عنايته الى ذلك فاكمل كتاب المقاييس والموازين والمكاييل وطبعه وأمر

بعد

بعد ذلك بترجمة كتاب (تاريخ العرب) للعالم سيديو المحقق الفرنساوى فكان كما أمر وطبع وهو الآن بين أيدى القارئين وقد أخذه بعض الافاضل الازهريين وشرع فى قراءته لطلبة العلم فى الجامع الازهر والفضل فى ذلك أيضا لصاحب الترجمة فانه هو الذى سهل الطريق لهذا العالم باعطاء كثير من الطلبة نسخا مجانا ثم أكمل كتابا جليلا سماه آثار الاسلام فى المدنية والعمران فكان هذا الكتاب آخر عمل له مبرور وخاتمة سعيه المشكور فانه نعم الكتاب شرح فيه كل ماأدخله الاسلام من العمران فى الممالك وما ترتب عليه من المدنية والنظام وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية بعبارات تكفل بيان المطلوب على وجه صحيح مقبول الا أن هذا الكتاب لم يطبع الى الآن والذى نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفا وتبييضا أعطاه لاحد أفاضل العلماء الازهريين ليعيد نظره عليه ويدقق فى مراجعة أصول الاحاديث النبوية التى فيه فكان كذلك وقرأه هذا الاستاذ لآخر حرف فيه وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات فى الحديث عدة أوراق ألحقها بذلك الكتاب وهاهو باق فيما نعلم بخزانة مؤلفه رحمه الله ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاتة الى طبعه لتعم به الفائدة ويعرف فضل الاسلام فى تقدم البلدان

ثم انه رحمه الله قد كان سافر الى بلده فى أواخر أمره لتفقد حال زراعته واصلاحها فادركه هناك مرض فى المثانة كان سببا فى عودته الى مصر وقد أخذ يعالجه الاطباء فلم ينجع الدواء وأدركه الاجل عصر فى منزله بالحلمية ليلة الثلثاء ٥ جمادى الاولى سنة ١٣١١ - ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣

وقد كان لخبر وفاته رنة فى أعماق القلوب لافرق فى ذلك بين رفيع ووضيع لان قدره معلوم للعموم وأظهرت الحكومة المصرية وحاكمها الجناب الخديوى الاعظم شديد الاسف على وفاته وفوات منفعته للبلاد والاهلين وأمر الجناب العالى أدامه الله وأبقاه بان يحتفل بيوم تشييع الجنازة أعظم الاحتفال وأنفذ هذه الاوامر

دولة رياض باشا رئيس النظار فكان تشييع جنازته رحمه الله على أعظم ما رؤى فيمن سبقوه من الامراء والذوات الكبار وأقفلت المدارس فى عموم انحاء القطر المصرى اكبارا ليومه وقامت الجرائد المحلية العربية والافرنجية وفى مقدمتها الجرائد الرسميــة على اختلاف مشاربها باعلان خــبر وفاته وذكر آثاره وترجمة حياته وقام طلبة دار العلوم وغيرهم من ذوى العلم والادب وأهل المعارف برثائه شــعرا ونثرا وتألفت لتأبينه جملة جمعيات منها ما هو على القــبر ومنها ما هو فى الانف تياترِ بنظارة المعارف فتليت فيها المراثى الطنانة وكان لها أكبر تأثير فى النفوس واشتركت فى ذلك الجمعيات العلمية من عربية وأفرنجية فكان لها كذلك أعظم وأطول المقالات العلمية المبينة لفضــله رحمه الله وأياديه على التربية والعلوم

ثم ان طلبة مدرسة دار العلوم اهتمت بامر تخليد أثره فيها لانه هو المؤسس لهـا فاكتتبوا لذلك فيما بينهم اكــتتابا اشترك فيــه كل المتخرجين منها من أول تأسيسها الى الآن وما جمعوه من النقود رسموا للمرحوم به صورة بالزيت على القماش وسيكون لوضعها فى مدرستهم احتفال يعد من الاحتفالات العمومية فى هذه البلاد وكذلك قام جماعة التلامذة فى هذه المدرسة بجمع ما قيل فيه رحمه الله من القصائد وطبعها على نفقتهم وتوزيعها للعموم

ومن أعظم المزايا أن شكلت فى العاصمة لجنة من كبار الوطنيين لفتح اكتتاب عمومى الغرض منه ان مايجمع فيه من النقود يقام به أثر تاريخى لهذا الرجل العظيم

كل ذلك وأمثاله مما ضاق عنــه المقام دليل على ما كان لصاحب الترجمة من المكانة فى قلوب أهليــه وعلى ان المصريين يقدرونه حق قــدره ويعــرفون الفضل لذويه ولا يبخسون الناس أشياءهم فى شروى نقير

والحق أحق بان يقال انه رحمه الله لو أقيم له أضعاف ما كان لما وفينا بحقــه ولما

ولما وصلنا الى مكافأته على جزء من حسناته فليس لنا الا ان نستهمى لروحه سحائب الرحمة والرضوان من ذى الرحمة والاحسان وان نقيم لذكراه فى قلوبنا صورا لا تمحوها الدهور بل تنتقل بالوراثة من الآباء الى الابناء مدى الاجيال وأسأل الله ان يكون عملى هذا مقبولا فانى كما قلت لم أقصد به سوى بقاء اسم هذا الرجل الجليل المقدار بين ابناء هذه الديار حقق الله املى واكمل بنوال المقصود عملى آمين

